الطبعة الثانية

عبد الله العروي

استبانة



مُنمنمات مُتمايزة

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

الكتاب : **استبانة**

المؤلف : **عبد الله العروي**

الطبعة : **الثانية** 2016

عدد الصفحات : 144

القياس : 14.5 × 21.5

الإيداع القانوني : 2016MO1921

الترقيم الدولي : 978-9954-9612-2-3

الناشر

المركز الثقافي للكتاب

الدار البيضاء / المغرب

6، زنقة التيكر

هاتف : +212522810406

فاكس : +212522810407

markazkitab@gmail.com

بيروت / لبنان

الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي

هاتف : +9611747422

فاكس : +9611744733

عبد الله العروي

استبانة



المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

1

1 - نبدأ بالاسم.

- العَرْوي بفتح ثم سكون. قليل من الناس من ينطق به على الوجه الصحيح. منهم من يقول العُروي برفع العين ظناً منه أنه نسبة الى عُروة، ومنهم من يقول العِروي بكسر العين لغلبة الإمالة على لسانه، ومنهم من يقول العُروي على وزن عُمري، ومنهم من يقول عَرَوي لانتشار اسم عَلَوي .

كلّما سمعت اسمي محرّفاً تضايقت من ذلك كغالب الناس فيما اعتقد.

2 - لماذا فتح العين؟

- أتصور، وهذا مجرّد تخمين، أن النسبة لا تعود إلى المفرد عروة بل إلى الجمع عراوة أي أولاد عروة.

3 - اسم نادر، أليس كذلك؟

- ظننت ذلك طيلة سنوات، إذ لا أعرف من يحمله خارج أسرتي المكوّنة من فرعين، فرع يقطن الجديدة والآخر مدينة أزمور، ما عدا أسرة سكنت فاس ثم انتقلت منها إلى الدار البيضاء، لكن هذه ملحقة بأسرتنا ونعرف سبب رحيلها إلى فاس. أشرت إلى الحادث في قصة اليتيم.

ثم اكتشفت لاحقاً وبالمصادفة أن الاسم، إن يكن نادراً في المغرب الأقصى، معروف خارجه ومنذ القديم.

الاسم مشهور في تونس.

كانت إذاعة ذلك القطر تذيع يومياً، أيام الحماية وبعدها، قصصاً باللهجة المحلية لكاتب يدعى عبد العزيز العروي. لمّا علمت أن أصله من منطقة الساحل تخيّلت أن أحد أجداده كان في طريقه إلى الحج ثم انقطع به الحبل فاستقر هناك كما حصل لعدد من المغاربة عبر القرون. لكن بعد سنوات وقعت على الجملة التالية في كتاب الحلل السندسية في الأخبار التونسية ضمن حوادث سنة 1685:

«وفي ضحوة يوم الجمعة 24 وقع حرب عظيم وجرح فيه عبد الله العروي.»

بل اكتشفت في كتاب الإحاطة للسان الدين ابن الخطيب إشارة إلى تاريخ أحمد بن موسى ويقول محقق الكتاب:

«إن المعني هو أحمد بن موسى العروي من مؤرخي الأندلس ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون. لم يصل إلينا توفّي سنة 388هـ/ 998م.»

وعندما نشرت كتاب تاريخ المغرب كاتبني أحد القراء يقطن مدينة ادرار فى مقاطعة توات ويدعى هو الآخر العروي يسألني هل بينه وبينى أية قرابة.

وهناك جبل العروي فى منطقة الريف. كان الاسم يكتب أيام الحماية الاسبانية أرويت، فلم أنتبه إليه.

4 - هل من رابط بين هذه الأسماء؟

- لا أدري. علم الانساب له قواعد مضبوطة. علاقة النسب لا تثبت إلا بوثائق محققة وصحة التواتر. من السهل حبك قصة شيّقة تربط بين عروي الريف وعروي الأندلس ثم بعروي تونس والمغرب.

5 - ما هو المحقق فى حال أسرتك؟

- يعود إلى عهد السلطان عبد الرحمان العلوي. يقول

الناصري أثناء عرضه لسلوك هذا السلطان مع قبيلة آيت يمور ما يلي:

«فأمر القائد محمد بن يشو المالكي العروي أن يحتال في كيدهم والإيقاع بهم.»

نفس الاسم موجود في رسائل سلطانية تعود إلى عهد السلطان عبد العزيز موجّهة إلى عمّ والدي كان قائداً في حوز الجديدة.

لا بدّ هنا من التذكير ببعض الحقائق التاريخية.

منها أولاً أهمية ميناء الجديدة في تلك الحقبة، إذ كان مرشّحاً، قبل أن يختار ليوطي موقع الدار البيضاء، ليكون منفذ المغرب الرئيسي إلى الخارج. ازدهرت فيها التجارة، فاستقرّ بها عدد من الأجانب. فأصبح من الضروري تأمين أحوازها، سيما الطرق التي تربطها بالعاصمة الاقليمية مراكش.

ثانياً ان السلطان عبد الرحمان استخلص العبرة من محن عمه السلطان سليمان، فقرر إضعاف عصبية القبائل وراح يعيّن على رأس كل مجموعة قبلية قائداً من غير أبنائها. نفهم إذن السر في اختيار أحد قواد جيشه ليسير شؤون جماعة لا ينتمي إليها. ظلّت القيادة في أسرتي إلى أن ثار الثوار على المخزن بعد وفاة الحاجب أحمد بن موسى.

سمعت الكثير وأنا صغير عن تلك الأحداث الدامية وعن مغادرة جدي الخليفة وأخيه القائد دار القيادة. قصد الثاني

مدينة الجديدة واستقرّ بها فيما لجأ الأول إلى ضريح مولاي بوشعيب الرداد بأزمور حيث مكث سبع سنين إلى أن أطلّ جنود فرنسا على أسوار المدينة.

6 - ماذا تستنتج؟

- أعترف أني اندهشت عندما قرأت أن أول من أرّخ للأندلس يحمل اسم العروي. عقلي يقول هذه مصادفة والوجدان يصرّ على الاعتقاد أن كل شيء مسطّر. كيف حصل أني توجهت، رغم ميولي، إلى امتهان صناعة التاريخ؟

كيف حصل أني أكتب التاريخ، أدرس التاريخ، ولا أكلّ من نقض مفهومه والحطّ من قيمته؟

الواقع هو أني لا أشعر بأدنى ارتباط بأية منطقة بعينها. عندما ينتمي المرء إلى ناحية ما يجد فيها كثرة من الأعمام والأخوال. ليست هذه حالي. لا قريب لي في الجديدة أو أزمور إلا من ذكرت. مما يدل على أني طارئ عليها. عندما يقال لي ولدت في أزمور فأنت دكالي او اسمك العروي فأنت ريفي، أبتسم بدون أن أثبت أو أنفي. حررت صفحات وصفحات في شأن القبيلة، مشدّداً على أنها مفهوم وهمي، تعاقدي لا تلاحمي. أسجّل تأثير هذا الوهم في الحياة العامة والخاصة، لكني لا أسايره في سلوكي. ارتباطي القوي هو مع

الكلّيات . . الوطن، الأمة، الدولة. رغم هذا إني أقف من الدولة موقفاً متذبذباً. أدافع بعقلي عن شرعيتها لكني لا أستطيع الاندماج في دواليبها. وألاحظ نفس التحفّظ عند عدد من أقاربي .

أحداث نهاية القرن التاسع عشر، الثورة وما رافقها من دمار، كيّفت نفسانية والدي، وهذه أثّرت، سلباً وإيجاباً، في نفسانيتي .

7 - نصل هكذا إلى شخصية والدك.

- هو محمد بن عبد الله بن محمد . .

هنا تنقطع السلسلة بالنسبة إليّ. لماذا؟ لأسباب طارئة وأخرى عميقة.

الطارئة هى الثورة وما جرّته من تخريب وإتلاف. لم يحتفظ والدي إلا بثلاث رسائل سلطانية تهمّ الأسرة. أما باقي الرسائل التي هي اليوم بحوزتي فهي هدية من طالبة كانت تعدّ بحثاً عن أحوال المرأة المغربية وتتردّد على مديرية الوثائق، فعثرت بالمصادفة على رزمة من الرسائل العزيزية تحمل اسمي، فصوّرتها وأهدتها لي. أنتهز هنا الفرصة لأعبّر لها عن شكري وامتناني.

من يفرّ بنفسه أمام الثوّار لا يفكّر في جمع وثائقه.

8 - هل النبش عن الأصول أمر مهمّ، مستحبّ، مفيد؟

- لا يهتمّ بالأصول إلا من له منفعة في ذلك، من يريد إثبات حق، أعني الأشراف والأعيان. أما غير هؤلاء، فلا يعنيهم الأمر كثيراً.

بما أننا لم نكن مرتبطين بجماعة معّينة، بما أن المحقق في حالنا هو الخدمة، وبالضبط الخدمة العسكرية، فلا داعي لنا إلى إثبات النسب، لا في حال الخدمة إذ الهدف حاصل، ولا في حال انتهائها إذ الهدف مستبعد.

9 - انتهت الخدمة مع الثورة، ماذا كانت مهنة الوالد؟

- كتبت في خواطر الصباح أني كنت أنوي استجواب أبي عن أطوار حياته قبل الحماية وأثناءها. ثم تراخيت إلى أن فات الأوان. لذلك لا أعرف إلا القليل عن حياته رغم أنه كان يحاورني طويلاً، لكن في موضوعات عامة، تاريخية فكرية سياسية إلخ . .

أعتقد أنه كان أثناء شبابه مغامراً يركب الخيل ويحمل السلاح، أمر طبيعي بعد أن شاهد ما شاهد أثناء الثورة . بل أظن أنه فكر في الهجرة إذ سمعته مرة يتكلم عن سفرة قام بها بحراً من ميناء الجديدة إلى طنجة.

لا أعرف شيئاً عن ظروف زواجه، ولا كيف حصل أن

اشتغل مدّة كاتباً لقائد بئر جديد حيث كان يوجد عدد كبير من المعمّرين الفرنسيين. هل كان ذلك قبل أن يفتح دكاناً لبيع الأحذية التقليدية أم فتح الدكان أولاً ثم كسدت التجارة، بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية ومزاحمة المنتوجات اليابانية، فاشتغل مع القائد؟ لا أعلم شيئاً من كل هذا.

10 - وماذا عن ثقافة الوالد؟

- كان يقرأ صامتاً ولا يجرؤ على الجهر لعدم تمكّنه من قواعد النحو، وكان يكتب بالخط المخزني. أين تعلم القراءة والكتابة؟ لا أدري.

أرجّح أن دار القيادة كانت تحتوي على مدرسة لتعليم القرآن. بعد ذلك واظب على الاستماع للدروس التي كان يلقيها بعد صلاة العشاء الفقيه السيناني الذي هاجر إلى أزمور بعد أن رفض الالتزام بالنظام الجديد المفروض على علماء القرويين.

11 - من كان يقرأ ويكتب في الأسرة غير والدك؟

- أخوه الأصغر كان عدلاً في قرية بن أحمد التي كان يقطنها عدد من المعمّرين. لذلك كان لأبي وعمّي إلمام بقضايا

العقارات الزراعية، بسبب النزاعات القائمة بين المعمّرين والفلاّحين المغاربة.

أظن أن فرداً واحداً من أعمامي الثلاثة كان أمياً، كما كان أمياً فرد واحد من بين إخوتي الثلاثة.

12 - كان إذن لوالدك دور في تربيتك؟

- لم يلعب أي دور في التربية النظامية، إذ كان يجهل تماماً اللغة الفرنسية ولا يتقن قواعد العربية الفصحى. كان ذلك الدور من نصيب أخي الأكبر. كذلك لم يلعب أي دور في تربيتي الوجدانية. أوضحت ذلك في قصّة اليتيم.

لكن كلّما تقدّمت في السنّ اكتشفت كم أثّرت تجربته، مع أني أجهل جوانب كثيرة منها، في ميولي الاجتماعية والسياسية.

13 - كيف ذلك؟

- مثلاً لم ينخرط في أية زاوية، عكس أخيه الأمّي. لا أقول إنه كان يعادي الزوايا، أقول فقط إنه كان يتجاهلها، لا ينتقدها ولا يدعو إلى الانخراط فيها.

مثلاً لم يعتزم أداء فريضة الحجّ، ولا أظن أن السبب كان

عدم الاستطاعة إذ كان، فيما أعتقد، يتوفّر قبل الأزمة على قدر كاف من المال.

مثلاً لم أره يصلّي في البيت إلا أواخر حياته ولم يطلب مني أو من أي من إخوتي أداء تلك الفريضة.

أكتفي بهذا القدر لأبرهن فقط على خطأ من يسحب أحوال الحاضر على الماضي. لا أعمّم، أبيّن فقط ماذا كانت تجربتي الشخصية.

فيما يتعلّق بالسياسة، كان أبي ينظر إليها بواقعية تامّة. يواظب على قراءة كتب التاريخ ويحلو له أن يناقشني في مضامينها.

فى غالب الأحيان كان يرتاح لحكم التاريخ. أتذكّر جيّداً نقاشاً ساخناً دار بيننا حول مسألة التحكيم بين علي ومعاوية.

14 - الخلاصة إذن هي أنك لم تهتمّ كثيراً بالنبش عن أصول أسرتك. ما تعرفه عنها متناثر واطّلعت عليه بالمصادفة.

- تكلّم أبي مرّة واحدة عن أصل أسرتنا. قال يظنّ البعض أننا ننتمي إلى أولاد بوسبع فنكون إذن شرفاء. كان عمّي الأمّي المتصوّف حاضراً فلم يخفِ استخفافه بهذا الادّعاء. ورغم أنه لم يدلِ بأية حجّة تنقض ما قاله أبي وافقته في قرارة قلبي.

لم أكن أعرف آنذاك آن السباعيين معروفون بميلهم إلى الشغب وأن ادّعاءهم الشرف مرفوض عند الكثيرين.

15 - لست ممن يقول إن الأسرة هي عماد المجتمع؟

- إن قال ذلك علماء السياسة والاجتماع فلا اعتراض لي على حقيقة مقرّرة.

ما أستخلصه أنا من تجربتي اليومية هو أن تغليب منطق الأسرة، أي القبيل، على حساب المجتمع والدولة يؤدّي إلى آفات كثيرة.

يبدو لي أن ذلك السلوك هو المسؤول عن تفشّي الرشوة والمحسوبية، إذ الأسرة تتوسّع بسهولة إلى زاوية، إلى حزب، إلى تعاونية، إلى شركة ، إلخ.

2

مُنمنمات مُتمايزة

16 - هل كان تعليمك تقليدياً أم عصرياً؟

- قضيت سنة واحدة في المحضر/الكتاب.

ما إن أدركت السنّ القانوني حتى سجّلني أبي في المدرسة العمومية كما سجّل إخوتي من قبل. أخفق مع ولده البكر الذي كان يتغيّب كثيراً عن الدراسة قبل أن يكتشف أن عزوفه عن التعليم النظري يعود إلى ولعه بالأعمال اليدوية. حصل إذن خطأ في التوجيه وهو ما يجري كثيراً اليوم . لكن أبي نجح نجاحاً باهراً مع ولده الثاني الذي أصبح بدوره داعية إلى نشر التعليم. لولا مواظبته على مساعدتي لما حققت ما حققت. وعندما تزوّج وأنجب فعل مع أبنائه وبناته ما فعل معي، فكان التفوّق وأحياناً النبوغ حليف الجميع.

في عهدي لم تكن توجد مدرسة خاصة بالبنات، لكن كانت توجد بالمدينة بعثة إنجليزية، من بقايا إرساليات القرن التاسع عشر. سجّل أبي أختي الكبرى فيها لتتدرّب على الطرز

وأختي الصغرى لتتعلّم القراءة والكتابة، لكن هذه انقطعت بعد أسابيع قليلة بدعوى أن الراهبة الإنجليزية كانت ترغم التلميذات على تقبيل يدها عند مغادرة المدرسة.

رافقت مرّة أختي عند الراهبات وسمعت المعلّمة تروي قصة يوسف وفرعون. كان ذلك قبل أن تغادر تلك الإرساليات البلاد بموجب اتّفاق فرنسي - انجليزي يضع حدّاً لكل الامتيازات التي تمسّكت بها إنجلترا بعد 1912. كان ذلك قبيل الحرب العالمية الثانية.

17 - يقال إن المغاربة لم يتسابقوا إلى تسجيل أبنائهم في المدارس التي أسّسها الفرنسيون. هل تؤكّد الأمر؟

- قد يصحّ ذلك في بعض المناطق وفي بعض الأحيان. تجربتي الشّخصية تكذّب هذا الادّعاء. منذ البداية بدا واضحاً للجميع ارتباط التعليم بالتشغيل. لا ينخرط في سلك الوظيف إلا المتخرّج من المدارس العصرية.

هذا ما حصل لأخوي وأبناء عمّي العدل. التحق الجميع بإدارة البريد. فصلوا أثناء الأزمة الاقتصادية ثم أعيدوا إلى الوظيف قبيل الحرب. كل هذا قبل أن تبدأ حركة تشييد المدارس الحرّة في كبريات المدن.

أمّا من ظلّ وفياً للتعليم التقليدي فلم تكن له وسيلة لكسب قوته.

18 - وماذا عن مستوى التعليم آنذاك؟

- كان عالياً جدّاً. كان المعلّمون الفرنسيون يشتغلون في المغرب، كما لو كانوا يسكنون مناطق نائية من التراب الفرنسي، يعملون بنفس الحزم وبنفس الإخلاص. هذا ما تدرّبوا عليه في معاهدهم التكوينية. يعطون لكلمة تعليم معناها الحقيقي، معنى التنشئة والتثقيف.

لم يتجاوز أخي الذي سهر على تربيتي الشهادة الابتدائية ومع ذلك كان يكتب بخطّ جميل واضح وبدون أدنى خطأ، يبزّ اليوم أي متخرّج من الدور الثانوي. نلاحظ اليوم أن مستوى التعليم، أو بأحرى مستوى المدرّس، يتأثر بمستوى الثقافة العامّة. لم يكن الأمر كذلك في أيّامنا. كانت الأمّية متفشّية وثقافة الأفراد هزيلة ومع ذلك لا يؤثّر هذا في المدرسة كما لو كانت واحة مفصولة عن محيطها البئيس.

19 - مَن زاملك في الدراسة؟

- لا أتذكّر أيّاً من تلامذة المدرسة الابتدائية.

من تلاميذ ثانوية مراكش أتذكّر بالأخصّ زغلول مرسي. كان أبوه مصري الجنسية، استقدمه الباشا التهامي الكلاوي ليقود جوقه الخاص. كان زغلول يكتب الشعر بالفرنسية. نبغ فيه ثم التحق مبكّراً بإدرة اليونسكو، فانقطعت علاقته بالمغرب.

20 - والأساتذة؟

- كانوا كلهم فرنسيين ما عدا مدرس اللغة العربية. وحتى هذه المادة كلف بتدريسها السنة الأخيرة أدولف فور الذي حقق وترجم كتاب **التشوف** للتادلي. أما أستاذ اللغة الفرنسية فكان شارل سالفرانك الذي تتلمذ عليه عدد من الطلبة المغاربة أولاً في فاس ثم في مراكش. بعد الاستقلال عُيّن أستاذاً بكلية الآداب بالرباط. اهتم كثيراً بالآداب الأندلسية، وإن لم يتعلم العربية. نشر عدّة مقالات في هذا الباب في مجلة **دفاتر الجنوب** التي كانت تصدر في مدينة مرسيليا.

لما التحقت بثانوية الرباط درست الآداب الفرنسية على فرانسوا غوتلان، ابن مدير التعليم العمومي في إدارة الحماية.

بعد الباكالوريا درست مادة التاريخ في ثانوية غورو بالرباط على لوزينكي الكورسيكي ذي النزعة اليمينية الواضحة، ومادة الجغرافيا في ثانوية ليوطي بالدار البيضاء على جان لوي مييج صاحب كتاب **المغرب وأوروبا من 1830 إلى 1894**، المرجع الأساس لكل الباحثين في تاريخ مغرب القرن التاسع عشر.

وطبعاً لم يكن أحد من هؤلاء الأساتذة يكلمنا عن الوضع السياسي، مع أننا كنا نعلم جميعاً أن العلاقات الفرنسية المغربية كانت تمرّ بأزمة حادة.

21 - وماذا عن المقرر؟

- نقرأ في بعض المؤلفات أن المسؤولين الفرنسيين، لمّا أسّسوا المدارس الخاصّة بأبناء الأعيان التي كانت تُعرف بالمدارس الفرنسية الإسلامية، حرصوا على أن لا تتعارض مقرّراتها مع المعتقدات الدينية والتقاليد المحلّية، فجاءت بذلك دون مستوى الباكالوريا الفرنسية. معروف أن التلاميذ المغاربة رفضوا هذا التمييز وأصرّوا على المطالبة بوحدة البرامج، كما نرى ذلك بوضوح في دفتر المطالب المغربية المقدّم سنة 1936 لإدارة الحماية.

في عهدي لم يبق أي فرق في البرامج سوى ما يخصّ تدريس اللغة العربية. وحتى هذه النقطة لم يعد لها تأثير إذ أصبحت في نهاية الأمر تلقّن كباقي اللغات الأجنبية. كلّما تقدّم التلميذ المغربي ضعفت معرفته بلغة الأجداد.

كانت المدارس الثانوية التي تأسست أولاً في فاس والرباط، ثم في مراكش، وأخيراً في الدار البيضاء، تهيئ التلميذ لاجتياز القسم الأول من الباكالوريا فقط. أما القسم الثاني فكان على التلميذ أن يلتحق، لاجتيازه، بإحدى الثانويات الفرنسية. وهذا الأمر فرض على الطالب المغربي أن يكون في مستوى زميله الفرنسي وبالتالي أن يتقن نفس المقرّر.

22 - هل طالعت غير المقرّر؟

- في السنة الأخيرة من ثانوية مراكش بدأت أطالع كتب الأدب والفلسفة المكتوبة بالفرنسية، سيما المؤلفات ذات الاتّجاه الوجودي إذ كان الجميع يتكلّم عن أعمال جان-بول سارتر و ألبير كامو.

زاد شغفي بهذه الكتب عندما جئت إلى الرباط إلى حدّ أني خشيت أن تؤثّر تلك المطالعات الجانبية على ترتيبي داخل الصفّ. فقرّرت أن أتجنّبها مؤقتاً وكتبت في كنّاش هذه الجملة: «أعاهد نفسي ألا أطالع كتاباً لا يتّصل بالمقرّر إلا بعد اجتياز الامتحان».

23 - كيف كان يبدو لكم الوضع الثقافي آنذاك؟

- لم نكن نعرف شيئاً عن الثقافة المحلّية.

لا نسمع إلا عمّا يكتب ويناقش في فرنسا بواسطة الأستاذ سالفرانك، أو عمّا كُتب أو نوقش قبل جيل أو جيلين في الشرق عن طريق أستاذ اللغة العربية كلّما حلّلنا قطعة لجبران أو الزهاوي أو طه حسين.

علمت فيما بعد أنه كان يوجد بين أظهرنا شعراء وأدباء يكتبون في صحف صدرت قبل الحرب العالمية الثانية، وأن بعضهم كان يسكن مدينة مراكش أو يعمل في البيضاء، لكني لم

أكن أعرف شيئاً عما كتبوا وأنا طالب داخلي في ثانوية مراكش. وبالتالى كان الأمر بالنسبة إليّ كما لو لم تكن توجد ثقافة مغربية معاصرة.

24 - هل كنت تكتب؟

- لم أكتب أبداً الشعر كما يفعل أقراني مثل زغلول مرسي أو محمد الصديقي أخ الطيّب المخرج المسرحي.

كنت أسجل في كناش تعليقات وحواشي على ما كنت أقرأ. واظبت على ذلك منذ سنّ الثالثة أو الرابعة عشرة واستعملت ما سجلت في أعمالي الروائية.

25 - هل كنت تشعر بالعزلة؟

- نعم.

كان الشعور بالعزلة يتقوّى بما أقرأ من الأدب الوجودي، غثيان سارتر، انفصام كامو، إلخ. ويتغذّى بصفة أقوى بما كنت أشاهد من بؤس وحرمان في أزقّة المدينة القديمة في مراكش.

أقرأ اليوم ما ينشر عن «البهجة» وأستغرب. هل رأى هؤلاء المعجبون ما كنت أخجل أنا من مشاهدته؟ أم هم

يصفون مدينة سحرية معلّقة في السماء أو مدفونة تحت الأرض لم أدع إليها أبداً؟

أتذكّر أن سالفرانك قرأ علينا في أواخر إحدى السنوات الدراسية صفحات من مؤلّف لأحمد الصفريوي قال إنها من أفضل ما كتب في الموضوع. أظن أن القطعة مأخوذة من مجموعة قصصية تحمل عنوان مسبحة العنبر. لم أتحمّل الاستماع إلى ما قرأ إذ كان يصف بحنان ودقّة مملّة ما كنت أشمئزّ أشدّ الاشمئزاز من رؤيته.

26 - هل كانت توجد في الفترة التي تتكلّم عليها إرادة إصلاحية؟

- إصلاح ماذا؟ التعليم؟ المجتمع؟ الدولة؟ هذه المستويات متداخلة. نعلم اليوم، بعد التجارب المحبطة التي مررنا بها، أن الجميع يريد الإصلاح، أو على الأقلّ يدّعي ذلك، لكن كل فريق يريده موافقاً لمصالحه، فيرفض كل مشروع إصلاحي لا يساير تلك المصالح، وفي النهاية لا يتحقّق أي شيء. لم يكن الوضع مختلفاً في الماضي.

كان الجميع ينادي بالإصلاح، المغاربة والفرنسيون. لكن من هم المغاربة ومن الفرنسيون؟

المغاربة كانوا طوائف وشيعاً: أعضاء المخزن، العلماء، أتباع الزوايا، التجّار، الصنّاع، إلخ. والفرنسيون كذلك كانوا

أحزاباً وجماعات ضغط: موظفو الحماية، أساتذة التعليم، المعمّرون، أرباب المصانع، رجال الدين، إلخ. كل فئة، من هؤلاء وأولئك، تريد تعليماً خاصّاً بها، يخدم مصالحها ولا يمثل خطراً على مستقبلها. فترتاب من كل إصلاح يهمّ الغير إذا رأته يزرع بذور العداء تجاهها.

نأخذ كمثال التجّار المغاربة. عددهم قليل لكنهم كانوا يمثلون النخبة في البلد. كانوا يتطلّعون إلى تعليم راقٍ لأبنائهم، يلقن باللغة الفرنسية وبدون اعتبار للخصوصيات المحلية، والدليل هو أنّهم بعثوا أبناءهم إلى ثانويات فرنسا. لكن هذا التوجّه لم يُرضِ المسؤولين في إدارة الحماية ولا أعضاء المهن الحرّة الفرنسيين. هؤلاء كانوا يفضّلون تعليماً خاصّاً بالمغاربة، يلقن باللهجات المحلية ولا يؤهّل الشبّان المغاربة للدراسات العليا، وكان يوافقهم في هذا الرأي من المغاربة العلماء وأعضاء المخزن. لذلك لم يتمّ إصلاح شامل، بل أنجزت إصلاحات جزئية، لا نقول إنها أخفقت بل إنها لم تُرضِ الكثيرين ولم تحقّق النتائج المرجوة منها.

لم يَرضَ الفرنسيون عن المدارس الفرنسية - المغربية لأنها لم تمنع انتشار الأفكار «المتطرّفة»، ولم يرضَ أعضاء المخزن عن المدارس الحرّة لأنها لم تحم الشباب من عدوى الديمقراطية. وحتى التجّار ندموا في الأخير على تسجيل أبنائهم في الثانويات الفرنسية التي زرعت في أذهانهم بذور العقوق والزندقة.

انظر مثلاً روايات إدريس الشرايبي.

27 - هل كان المخزن يفكّر في إصلاح دواليبه؟

- لا أحد يعرف بالضبط ماذا كان يدور في خلد أعضاء المخزن.

المخزن بالمفهوم القديم هو الحكومة، له أهداف محدّدة وسياسة قارّة، لكن بعد تنازل السلطان عبد الحفيظ لم يعد للمخزن نفوذ. بموجب معاهدة الحماية انتقل عبء سياسة الإصلاح، اتّخاذ القرارات الضرورية، إلى كاهل السلطة الجديدة. كُلّف الموظّفون الفرنسيون، الإسبان في المنطقة المخوّلة لإدارتهم والموظّفون الدوليون في طنجة، بتحديد المشكلات، تصوّر الحلول لها، تنزيلها في قوانين تحرّر باسم السلطان وتعرض عليه شكلياً للمصادقة.

يمكن لأنصار المخزن أن يدّعوا أن إصلاحا من نوع ما كان يطبّق بالتدريج ولو على يد الأجانب الدخلاء. يعزّز هذا الادّعاء الاعتقاد السائد أن الإصلاح بدون شوكة، أي قوة رادعة، ممتنع إذ دلّت كلّ التجارب السابقة، وكلّها فاشلة، على ذلك، والقوة آنذاك كانت بيد الفرنسيين. زد على ذلك أن عدداً من حاشية السلطان لم يكونوا من أصل مغربي ولا حتى مغربيّي الهوى، فلم يكونوا يتطلّعون إلى غير الموجود.

28 - وإصلاح القرويين؟

- جرت محاولة في بداية عهد الحماية، واجهتها مقاومة

عنيدة، فأهملت واقتصر الأمر على ضوابط تنظيمية مثل ترسيم الأساتذة، تحديد شروط الانخراط وسنوات الدراسة، ترتيب الامتحانات وتسليم الشهادات، إلخ.

أما تحديث البرامج، تغيير موادّ الدراسة، لكي يتخرّج من القرويين نمط جديد من العلماء، فقد اعتبر الكثيرون ذلك تدخّلاً في شؤون الدين وتجاوزاً للسلطة المفوّضة لإدارة الحماية بموجب عقد 1912.

كنّا نلتقي من حين لآخر طلبة جامع ابن يوسف، نسخة مصغّرة من القرويين، فكانوا يقولون لنا إنهم يحبّذون الإصلاح، بل يطالبون به، وإن المانع هو الحماية إذ المسؤولون الفرنسيون يعارضون كلّ اقتراح يتقدّم به القصر الملكي، في حين أن الفرنسيين يلقون باللآئمة على بطانة السلطان التي كانت، حسب قولهم، تخشى ردّ فعل الوطنيين.

سبق لي أن ذكرت أن بعض العلماء رفضوا حتى تلك الترتيبات الإدارية لأنها ألغت سنّة التطوّع وجعلت من نشر العلم حرفة عوض أن تظلّ واجباً دينياً. ففضّلوا الاعتزال حتى لا يشاركوا في سَنّ بدعة.

29 - والمسيد؟

- كنا نسمّيه الحضار أو المحضر والتلميذ محضري. كان يمثّل في أعيننا، نحن تلاميذ المدرسة العصرية، أقبح مظاهر التخلّف.

الجلوس على الحصير، الكتابة بقلم القصب على ألواح مطليّة بالطين، كنا نشمئزّ من كل ذلك ونقول إنه من مظاهر القرون الوسطى.

لم يتركنى أبي في المسيد إلا سنة واحدة. كنت في سنّ الخامسة. لا أذكر أني تعلّمت فيه شيئاً، كتابة أو قراءة. لم أشعر أن أحداً حولي كان يعتقد إمكانية تطوير المسيد إلى روض أطفال أو مدرسة ابتدائية. لهذا السبب لمّا أسّست المدارس الحرّة، بمبادرة من الوطنيين، لم تكن على صورة كتاتيب مطوّرة بل قلّدت المدارس التي فتحها الفرنسيون.

ليس هنا مجال مناقشة هذه المسألة، نظراً لما جرى بعد الاستقلال ومحاولة البعض إحياء نظام الكتاتيب كوسيلة لحلّ مشكلة الأمّية.

الموضوع يستحقّ نقاشاً مفصّلاً، لكنّي أودّ إبداء الملاحظة التالية: لو كان الإنجليز محلّ الفرنسيين لتعاملوا مع مشكل التعليم عموماً، ومسألة الكتّاب بصفة خاصّة، تعاملاً مخالفاً لتعامل الفرنسيين لأن تجربتهم في بلدهم غير التجربة الفرنسية.

وهذا يطرح مسألة هوية «المصلح» في حال الحماية الأجنبية.

كان ينقص المصلح المغربي شيئاً ما، ولذلك أخفق واستعان بمصلح أجنبي، لكن هذا بدوره قد ينقصه شيء لكي يوجّه الإصلاح الوجهة الصحيحة. هذا النقص أو القصور أو العمى يظهر واضحاً في كلّ ما كتبه الفرنسيون عن نفسانية المغاربة.

يرون الخصوصية فيما هو عام والديمومة في ما هو طارئ ومؤقّت .

30 - وعن المدارس الحرّة؟

- أيّام السلطان الحسن الأول كان للإنجليز مدارس «إرسالية» مخالفة لنظام المسيد، وأيّام الحماية كانت للكنيسة المسيحية مدارس خصوصية، كما هو الحال في فرنسا ذاتها. لا فرق في هذا الباب بين المنطقة الجنوبية والشمالية أو منطقة طنجة. لا شيء كان يمنع إذاً، نظرياً على الأقلّ، أن تؤسّس مدارس خصوصية مغربية، عاجلاً أم آجلاً.

لمّا انسدّ باب التوظيف في إطار المخزن بسبب انحصار نفوذه، وأصبح تعيين القضاة ومساعديهم بيد الفرنسيين، وطبعاً حسب درجة موالاة الناس لهم، وتعثّر إصلاح التعليم، وبعد أن انتشرت الدعاية ضد الزوايا، لم يعد أي منفذ مفتوحاً لخرّيجي القرويين وجامع ابن يوسف سوى التوجه نحو التدريس خارج سلك الدولة.

منذ البداية رأى الفرنسيون في تأسيس أيّة مدرسة حرّة خطراً على نفوذهم. لماذا؟ لأنّهم كانوا يعتبرون المسيد مدرسة دينية على شاكلة المدارس الكنسية عندهم وبالتالي عليها، في رأيهم، ألاّ تتعدّى تلقين القرآن.

لو وافقوا على تطوير المسيد أولاً ماديّاً، باستعمال السبّورة والطباشير والمقاعد والكتب والكنانيش، ثم أدبياً بإدخال موادّ جديدة في البرنامج كالتاريخ والجغرافية والحساب، وبالنسبة للبنات التدريب على الخياطة والطرز والطبخ، وهو ما كانت تفعله الراهبات الإنجليزيات كما ذكرت سابقاً، لما دعت الحاجة إلى تأسيس مدارس حرّة. لكنّهم عارضوا تلقين أية مادّة غير دينية بالمعنى الضيّق، حتى الحساب، حتى التاريخ، فجعلوا رغماً عنهم من تأسيس كل مدرسة حرّة عملاً معادياً لهم، دليلاً على انتشار النقمة ضدّهم.

وصل الأمر إلى حدّ أنهم اعتبروا رعاية السلطان أو بعض الأسر المغربية الغنية لمدرسة حرّة تحوّلاً خطيراً في مسار العلاقات الفرنسية - المغربية.

هذا مع أن إدارة الحماية لم تُبدِ أدنى امتعاض تجاه مبادرات مماثلة من قبل الطائفة اليهودية. وعندما أعطت أُكُلها سارع بعض الفرنسيين إلى مقارنة «نباهة» اليهود و«غباوة» المسلمين.

31 - هل حقّقت المدارس الحرّة أهدافها؟

- فتحت مجالاً لتوظيف خريجي القرويين.

حافظ هؤلاء على، وربما رفعوا، مستوى معرفة اللغة العربية. عملوا كذلك على رفع مستوى الوعي الوطني لدى

الشباب. نشروا أفكاراً سلفية معادية في نفس الوقت للسلطة الفرنسية وللمخزن الموالي لها وكذلك لشعوذة أشياخ الزوايا.

لولا نشاط المدارس الحرّة لما ظهر صحفيون مغاربة شرعوا يكتبون في الصحف الوطنية كلّما سمحت سلطات الحماية بإصدارها، وعند منعها في جرائد البلاد العربية الأخرى. لولا نشاطها لما تكوّن جيل من القادة الذين أطّروا مظاهرات 1935 و1937.

بالطبع كانوا شرذمة، سيما إذا قارنّا وضع المنطقة الجنوبية بالشمالية التي تمتّعت ببعض الحرية في مجال التعليم.

هذا الجانب الإيجابي هو المهمّ نظراً للظروف القائمة آنذاك بالنسبة للمآل الذي انكشف لنا نحن المتأخرين. هناك جانب سلبي يتجسّد في تقوية التقاليد المغربية، تقاليد مغايرة لتقاليد المخزن الموالي للحماية، لكنها تقاليد على كل حال تضخم قيم الماضي على حساب الحاضر المرفوض.

32 - هل كان يفيد أن تظلّ تعمل بعد تحقيق الاستقلال؟

- واصلت عملها.

حافظت الحكومة على الكل إذ كانت قليلة. ثم أراد البعض تعميم نظامها على المدارس العمومية التي كانت بدورها قد تطوّرت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

هذا هو مضمون ما سمّي بمخطّط التعريب الذي وقع حوله

إجماع سياسي، لا إجماع اجتماعي، والذي يتعرّض اليوم لنقد لاذع.

مشكل التعريب لا يزال قائماً إلى الان.

كان الفرنسيون يدّعون أنهم يعارضون تعدّد المدارس الحرّة لأنها تنشر ايديولوجيا عروبية عدوانية، ونفس الانتقاد يرفع حقاً أو باطلاً ضد المدرسة المعرّبة منذ الاستقلال.

33 - التعليم أم مشكلات المغرب؟

- كان ولا يزال وسيبقى كذلك.

أخفق المخزن قبل الحماية، وأخفقت إدارة الحماية، سيما الفرنسية، وأخفقت حكومات المغرب المستقلّ الموحّد في تصوّر إصلاح شامل يحظى بموافقة الجميع، الأحزاب، النقابات، أولياء التلاميذ، الخ.

قال البعض إن سبب الإخفاق المتكرّر عدم وجود إرادة سياسية. حتى لو توفّرت تلك الإرادة لما هان تصور وتطبيق الإصلاح.

الأمثلة الناجحة في هذا الباب، والتي تساق باستمرار، تخصّ مجتمعات إما صغيرة ومنسجمة وإما توجد في حالة غيبوبة، مثلاً غداة هزيمة ساحقة يستغلّها حكّام أقوياء ليفرضوا بعزم وشدّة الخطّة الإصلاحية المعدّة مسبقاً، وذاك لمدّة جيل أو جيلين. هذه ظروف لم تتوافر أبداً في المغرب.

الإرادة السياسية لا تكفي، لا بدّ من قناعة بنجاعة الإصلاح وضعف المعارضة الداخلية .

يمكن القول إذاً إن الحلول الجزئية الترقيعية ستتوالى. بعضها يصيب الهدف بسبب حيوية المجتمع ومواكبة نمو الاقتصاد. فيكون رفع مستوى التعليم نتيجة لا سبب التطور، إلى أن تتوافر الظروف المذكورة أعلاه، في إطار المغرب بالتحديد.

3

34 - كيف كنت ترى أوضاع البلاد؟

- كنت بالطبع أجهل حقيقة الأوضاع وأنا شابّ. عشت أولاً في مدينة صغيرة معزولة، ثم في داخلية لم أكن أغادرها إلا مرّة في الأسبوع وأثناء العطل.

لكن ما كنت أسمع هو أننا فقدنا استقلالنا.

قد نتساءل اليوم عن معنى لفظ استقلال. هل ينطق به المرء عفوياً، سيما الأمّي، إن لم يسمعه ممّن هو أحذق منه؟ رغم هذا كان اللفظ متداولاً بين الناس، كباراً وصغاراً، أغنياء وفقراء.

يُدرك المدلول بالمقارنة مع التجربة اليومية. الطفل مثلاً يعيش في كفالة والده ثم يدرك سنّ الرشد فيستقلّ بشؤونه، إلا إذا كان فاقداً للتمييز، غير قادر على تحمّل المسؤولية، فيظلّ في حجر غيره.

القياس وارد.

نحن المغاربة، بصفتنا أمّة، مجموعة بشرية، إما لا نزال

دون الرشد وعلينا أن ننتظر أن نكبر فنصبح أسياد أنفسنا، وإما نحن أغبياء بطبعنا، محكوم علينا أن لا نرشد أبداً. كان منا من ينحو هذا المنحى ويعتقد أنّنا قاصرون وسنظلّ كذلك إلى آخر الزمن. هناك أمثال شعبية كثيرة تنمّ عن هذا الاعتقاد. لكن أغلبية سكّان المدن، وضمنهم أبي، كانوا يرون أن سوء حالنا يعود إلى الجهل وانعدام التربية. الصورة المتحكّمة في أذهاننا، حسب ما أذكر، هي أننا كنّا نملك شيئاً فقدناه بسبب بؤس حظّنا وكذلك بسبب تهاوننا وتخاذلنا، فيجب أن نعمل على استرداده.

وفى حال أسرتنا بالضبط كان هذا التصوّر ينطبق على التجربة الخاصة، تجربتنا العائلية، وعلى التجربة العامة، تجربة المخزن والمغرب.

35 - بأي بلد كنت تقارن المغرب؟

- أساساً بحالة تركيا، وذلك بتأثير من والدي الذي تابع بانتظام، من خلال الصحف، ملحمة مصطفى كمال. بعد ذلك كانت المقارنة مع مصر بتأثير من أساتذة اللغة العربية. لكن بعد أن اتّسع أفق تفكيري رحت أبحث في أحوال روسيا قبل وبعد الثورة البولشفية، وفي أحوال إسبانيا قبل وبعد الحرب الأهلية. كنت أبحث عن أسباب الانحطاط وأسباب الانعتاق.

حالة إسبانيا مهمّة من الوجهتين .

لماذا انحطّت فسهل غزوها من طرف المسلمين، ثم لماذا انحطّ المسلمون فسهل طردهم من الجزيرة، ثم كيف انحطّ الإسبان مجدّداً بعد أن غلبوا المسلمين وفتحوا أمريكا وتحكّموا في نصف أوروبا الغربية. انحطّوا إلى حدّ أنهم كادوا في أواخر القرن التاسع عشر أن يقصوا من حاضرة أوروبا المتقدّمة. فقيل إن أفريقيا تبدأ مع جبال البرانس.

المقارنة سلاح ذو حدين. قد تؤدّي إلى تبخيس النفس وازدرائها، وقد تؤدّي إلى مقاومة دواعي التخلّف وإلى التطلّع إلى تجاوز الوضع الحاضر البئيس، إذ الاعتقاد أن الانحطاط سنّة لا تقاوم يقود حتماً إلى الانحلال والتلاشي كما حصل لهنود أمريكا.

36 - ماذا كانت أسوأ ظاهرة في محيطكم؟

- الشعوذة، بدون منازع.

كانت تتمثل، بالنسبة لنا، في مواقف وتصرفات عادت بكل أسف مقبولة عند الجمهور بعد الاستقلال، بل أصبحت تعتبر جزءاً من العقيدة. كنا نشمئزّ مما كنّا نشاهد في ساحة جامع الفنا، أثناء مواسم عيساوة وحمادشة وغيرهم، من التداوي بالأعشاب، من زيارة القبور، من التحلّي بالحرز والتعاويذ، إلخ، من كل ما كان يوصف منذ عشرات السنين وفي عشرات الكتب على أنه «معتقد» المغاربة ولا يمكن سبر

دواخلهم ولا التعامل معهم بصفة مفيدة إلا بإدراكه وفهم دقائقه.

كان عدد كبير من الباحثين من أجناس مختلفة يؤكّدون: هذه ديانة المغاربة، هذه ثقافتهم، هذه نظرتهم إلى الإنسان وإلى الكون، فعلى كل موظّف أجنبي، على كل زائر أن يلمّ بهذه المعطيات، وإلا باءت كل مشاريعه بالفشل. أما الأفراد، وهم قلّة من شبان المدن، الذين لا يخضعون للنمط المذكور فهؤلاء يمثلون خطأً من الطبيعة أو مسخاً محققاً.

بالطبع كنا نحن نرى في هذه المعتقدات والتصورات جاهلية جديدة يجب محاربتها والتخلّص منها نهائياً حتى يتسنى لنا أن نتشبع بقيم الإسلام الحق. لم نكن وحدنا نقول هذا الكلام، بتأثير من الثقافة الفرنسية حسب البعض، بل يشاركنا الرأي تلاميذ جامع ابن يوسف، المتأثرون هم بوصايا عدّة ملوك علويين وفتاوى جحافل من العلماء السلفيين.

مَن يتمعّن هذه النقطة بالذات قد يلمس جذور ما أسميته فيما بعد التاريخانية.

كنا نقول: لماذا لا يرى هؤلاء الباحثون الفرنسيون أن هذه العادات والأعراف ظهرت في ظروف معيّنة واستقرّت لدوافع طارئة تشبه إلى حدّ ما المعروف في مجتمعاتهم قبل مائة أو ألف سنة، وأنها ستتراجع وتتلاشى لا محالة يوماً ما. لا، قرّروا وأكّدوا: هذا هو المغربي، هكذا كان وهكذا سيظل إلى أن ينقرض معنوياً ثم مادياً، وبالتالي من واجب المسؤولين في

إدارة الحماية الدفاع عن هذه الثقافة الأصيلة ومقاومة من يعاديها ويدعو إلى اجتثاثها من المغاربة الشبّان، سيما وأنها تجلب السيّاح.

كتب أحد الأدباء الفرنسيين، لا أدري هل الخبر صحيح أم لا، أن السلطان مولي يوسف، أثناء إحدى زياراته لفرنسا، استُدعي إلى عرض سينمائي لفيلم وثائقي عن المغرب. كان الفيلم يظهر صوراً من موسم الطائفة العيساوية والأتباع يشقّون جماجمهم بالشواقير ويأكلون لحم حيوان حي. لم يتحمّل السلطان المنظر فغادر القاعة. والغريب هو أن الكاتب استغرب سلوك السلطان مدّعياً أن الواقعة كانت سبب منع تلك المواسم لاحقاً.

لهذا الكاتب أنصار كثيرون في مغرب اليوم.

ما كنّا نشمئزّ منه ونودّ محوه إلى الأبد من البلد يحبّذه اليوم بعض الأشخاص ويقولون لا حياة، لا فن، لا إبداع، لا وجد إلا بمشاهدة تلك الطقوس بل المشاركة فيها.

37 - كان الانحطاط إذن عامّاً في المغرب؟

- ظاهر السؤال يستدعي جواباً بسيطاً فورياً وهو نعم. كان المغرب في انحطاط ومنذ زمن طويل.

لكن وراء الظاهر البسيط يقبع مشكل صعب. يقال إن

المغاربة يعتقدون أن كل حادث كبير أو صغير مقدّر مسطّر مكتوب. اللفظ الأخير هو الشائع عند الكتّاب الأجانب. لكن ما يوافق المكتوب هو مفهوم الشقاء أو المحنة لا مفهوم الانحطاط. وبالفعل العالم التقليدي، المجلبب المعمّم، ذاك الذي يبهر الصحفي أو الباحث الأجنبي، فيثني على رزانته وصبره وإيمانه القوي ورجائه واطمئنانه، لا يتصوّر معنى الانحطاط ، فيعوّضه بمفهوم النسيان أو الغفلة أو السهو، وعندئذ يضع نفسه خارج التاريخ.

أما مَن يدرك معنى الانحطاط أو التأخّر أو التباطؤ أو التخلّف، فهذا يستحضر بالمرافقة والاستتباع معنى المسار، ارتقاءً أو انحداراً، شروقاً أو غروباً، وبالتالي يصبح يرى علامات دالّة على السبيل. فيميّز الكتبية عن قصر البديع، اليوسفية عن الباهية. حينها يستغرب أن يرى ضابطاً فرنسياً وسط ساحة جامع الفنا يرأس مخفر الشرطة.

الانحطاط ليس واقعاً يشاهد بقدر ما هو مفهوم، معنى، يتّضح بالتدريج.

38 - انحطاط بالنسبة لأية فترة من التاريخ؟

- كلّ مكان تحلّ به يوحي إليك بفترة تاريخية تجعلك تخجل من الحاضر أكثر مما تفخر بالماضي.

أزمور هي الحصن الذي تجمّع بجواره المجاهدون في

حمى الولي الصالح أبي شعيب أيوب. إن لم ينجحوا في طرد العدو المحتلّ، بسبب ضعف الوسائل المادية - وفي الحين يبرز في الذهن مفهوم التقدّم في مجال التسليح والتحصين والتنظيم والاستعداد من جهة ، ومفهوم التخلّف في نفس الميادين من جهة ثانية - ، فعلى الأقلّ منعوه من التوسّع وجعلوا مكوثه في المكان مكلّفاً.

مراكش توحي بعظمة المرابطين والموحّدين والسعديين. عندما تقف على عتبة مسجد الكتبية، ثم تلتفت وترى السيّاح الأجانب يتفرّجون على بهلوانيات المغاربة، تشعر في آن بالفخر وبالحسرة.

ساكن فاس يستحضر بطولات الأدارسة والمرنيين. ساكن تطوان يصغي باستمرار لنحيب الأندلس.

كلّما قوي الشعور بالانحطاط ألحّت المقارنة مع أسطع وأبهى فترات الماضي، الفترة السعدية بالطبع.

هوى مراكش سعدي، لا شكّ في ذلك، بسبب الانجذاب إلى الجنوب واعتقاد العامّة أن الخلاص يأتي دائماً من تلك الجهة.

39 - هل كانت فكرة التجديد مقبولة في دائرتك؟

- نعم وبدون أدنى تردّد.

كانت المسألة واضحة بالنسبة لوالدي: لو كانت أوضاع

الماضي صالحة ومرضية لما أدّت إلى ما أدّت إليه من فوضى وتقاتل واحتماء بالأجنبي الكافر. سبب كل ما حصل، واكتوى به هو شخصياً، الجهل والغفلة والتوكّل. لا بدّ إذاً من التخلّص من هذه الآفات بالتعليم، التسلّح بالعلم النافع، لا نقل الخرافات وأسرار الغيب.

سار أخي الأكبر على هذا النهج بعزيمة أقوى، إذ كان أقلّ اتّصالاً بالماضي. لا يقرأ إلا الفرنسية ولا يجول إلا في مدار الثقافة الفرنسيةّ «العامية»، إن صحّ التعبير. لا أظن أنه كان يهتمّ بغير التعليم. لم يتجاوز مستوى الشهادة الابتدائية التي كانت لها آنذاك قيمة وأية قيمة. بها أستطاع أن يجد وظيفاً. لكنه تأسّف طول حياته لعدم مواصلة الدراسة لاقتناعه أنه كان يتفوّق في كل درجاتها.

لمّا أعلن عن الاستقلال استقبل الحادث كأمر عادي يضاف إلى حوادث عادية أخرى. انخرط في النشاط النقابي بكل جدّية، إلى أن ألمّ به مرض فصله عن العمل وأدّى به إلى التلف.

وحتى الإناث من أسرتي كنّ يسرن في نفس الاتّجاه. تزوّجت أختي الكبرى، التي حلّت محلّ أمّي، بقريب لها كان أمّياً لكنه كان طبّياً وناجحاً في مهنته. ظلّت ترتدي الجلباب وتتحجّب على الطريقة المغربية المتمدّنة الأنيقة، إلى أن صادفتها مرّة، بعد أن عدت لا أراها إلا لماماً، في عرض زقاق من أزقة المدينة القديمة أواخر السبعينات. أنكرتها أول وهلة لأنها كانت سافرة مقصوصة ومخضّبة الشعر. ثم عانقتها

وعانقتني بحنان، فرحة مرتاحة كما لو كانت تسرّ إليّ أنها لم تُقدم على ما فعلت إلا بعد أن توفّي زوجها الأمّي.

وكانت قد سبقتها في هذا الباب أختنا الصغرى، تلك التي رفضت تقبيل يد الراهبة الإنجليزية.

لم أكن أتصوّر، وربما لم أكن أرى، أن نساءً في مثل سنّ أختي كنّ يسرن في الاتّجاه المعاكس ويفعلن ذلك باسم «التجديد».

40 - هل كنت تعرف شيئاً عن أوضاع البلاد المجاورة؟

- لا شيء.

كما كنت لا أعرف شيئاً عن المنطقة الخليفية أو عن منطقة طنجة. لم أغادر أرض المغرب، مغرب الحماية الفرنسية، إلا في أكتوبر 1953، بعد خلع السلطان محمد بن يوسف.

لكن أخي الأكبر سافر إلى الجزائر رفقة عدد من زملائه في بريد أكادير. حدّثني عما رأى هناك، وبإعجاب، سيما في منطقة القبائل. ذلك سنوات قليلة قبل اندلاع الثورة فيها. لم ينخدع وحده بما رأى. قرأت من بعد كتباً كثيرة تصف حالة الاضطراب التي تعيشها تونس والمغرب وحالة الهدوء التامّ الذي تنعم به «المقاطعات الجزائرية».

41 - هل كان لك أقارب في مدن أخرى من المغرب وهل كنت تزورهم؟

- كان لي أختان متزوجتان في البيضاء وكذلك أخ مستخدم في مصلحة السكك الحديدية. والأخ الأكبر، الذي تعب أبي في تربيته لأنه أخطأ توجيهه التوجيه الصحيح، عيّن أخيراً في قرية ابن أحمد كموظّف في مصلحة البريد. أمّا الأخ النبيه المولع بنشر التعليم، والذى كان أيضاً يشتغل في البريد، فقد سكن بعد البيضاء مدينة أكادير، تزوّج هناك فتاة من الصويرة، ثم نقل إلى وجدة، فأحبّ الطقس والسكّان، ثم إلى القنيطرة فضاق بالأرض والناس، فعاد إلى الجديدة مهموماً مغموماً. مع ذلك واصل الاهتمام بتربية أولاده، ذكوراً و إناثاً، إلى أن بلعته الأرض يوماً ولم تعده لذويه. منهم من تأثّر بالحادث إلى حدّ أن تخيّل أموراً لم تحدث.

هذه خريطة المغرب الذي تجوّلت فعلاً في ربوعه، يحدّه شمالاً خطّ وجدة - القنيطرة وجنوباً خطّ مراكش- أكادير. يختلف عن المغرب الذي تجوّل فيه أبي في شبابه والمحدود بخطّ فاس- طنجة شمالاً وخطّ مراكش- الجديدة جنوباً.

42 - من كان السابق داخل أسرتكم إلى تغيير اللّباس؟

- تشير إلى ما سمّاه بعضهم التفرنج.

يجب أولاً التذكير بتغيير مهمّ جرى بداية القرن العشرين

وهو تعميم ارتداء الجلابة التي كانت مقصورة في السابق على أصحاب الدكاكين أي تجّار المدن. عادت الجلابة لباس المغاربة بامتياز مع مميّزات بين الجهات والمهن، وكذلك بين الجنسين، تخصّ اللون أو الطول أو مادّة النسيج أو شكل التفصيل والخياطة والطرز، إلخ.

لم يفارق أبي أبداً هذا اللباس (الرزّة، الجلباب، البلغة) حتى وفاته سنة 1970.

أمّا إخوتي الثلاثة فقد ارتدوا لباس الوظيف وتعوّدوا عليه.

وتخلّيت أنا عن الجلابة والطاقية سنتين بعد التحاقي بثانوية مراكش، خلال سنة 1947 على وجه الدقّة.

43 - هل كان ذلك يشير إلى ابتعاد عن الدين؟

- لا، على الأقلّ في نظر أعضاء أسرتي.

في حال إخوتي كان التغيير ضرورياً، واحتفظ أبي بلباسه المعتاد لانعدام الحاجة إلى تغييره. لو كان التحق بالجيش النظامي قبيل الحماية لارتدى بالطبع البذلة العسكرية كما فعل صهره.

على العموم للباس دلالة رمزية، لا شكّ في الأمر، والدلالة أوضح بالنسبة لبعض الطبقات الاجتماعية - المخزن، العلماء، الشرفاء، شيوخ الزوايا.

ثم كانت هناك حملة ضد التفرنج، أي التشبّه بالنصارى،

حملة كنّا نحن الشبّان ننظر إليها بريبة كبيرة، لأن إدارة الحماية كانت تدعمها.

قد يبدو الأمر غريباً لكنه واقع.

بالتدريج بدا التشبّث بالتقاليد المحلية يساوي الرضى بوضعية الحماية.

44 - هل وجدت فعلاً سياسة تنصير؟

- إذا كان المقصود خطّة محكمة هادفة إلى استدراج أكبر عدد ممكن من المغاربة المسلمين إلى نبذ دينهم واعتناق المسيحية، فالجواب هو لا قطعاً، اعتباراً لحال المغرب ولحال فرنسا الجمهورية اللائكية.

لو كانت الدولة الحامية إسبانيا أو إنجلترا أو حتى ألمانيا، لتردّدت شيئاً ما قبل أن أجيب. لكن وضعية فرنسا الداخلية، والسياسة الرسمية المتبعة فيها إزاء الكنيسة الكاثوليكية، كل ذلك لم يكن ليشجّع على نهج سياسة مغايرة خارج تراب الجمهورية ولو من طرف موظّفين متديّنين.

ثم وضع المغرب لم يكن مواتياً لنهج سياسة التنصير. نظام الحماية مبني على التفويض - حتى في المنطقة الشمالية لا يمكن لإسبانيا أن تنهج سياسة مخالفة تماماً لسياسة فرنسا إذ إدارتها كانت بتفويض من فرنسا لا من سلطان المغرب مباشرة.

وتفويض سلطة المخزن يتمّ في حدود واضحة. موظّف

الحماية يعمل في إطار محدّد وإلا فقد الشرعية، كما بدا ذلك واضحاً أثناء أزمة «الظهير البربري».

هذا لا يمنع بالطبع أن تجري محاولات، خارج الإدارة الرسمية، من جانب أفراد لهم إيمان قوي بضرورة تبليغ رسالة المسيح، أو من بعض الرهبان، رغم أوامر صارمة من رؤسائهم، علماً بأن الإدارة ملزمة بالوقوف موقف الحياد إزاء مثل هذه المبادرات الفردية.

الضجّة التي أحدثتها واقعة تنضير محمد بن عبد الجليل كانت قد خمدت في أيامنا ولم يحدث بعدها ما قد يعيدها إلى الذاكرة.

ما كان يزعجنا نحن الشبّان ليس الدعوة إلى التنصير بل بالعكس الدعوة إلى التشبّث بالشرك المتمثّل في كثير من التقاليد العتيقة.

كانت الشعوذة تبدو لنا شكلاً من أشكال التنصير، والعكس صحيح أيضاً.

45 - في هذه الحال كيف تفسّر أزمة الظهير البربري؟

- المسألة جد معقّدة من الوجهة التاريخية.

أتناولها هنا من هذا المنظور، إذ لا أذكر أنّها كانت حاضرة في أذهاننا ونحن طلبة.

الجانب التبشيري، أي محاولة تنصير البربر عن طريق

إبعادهم عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، هذا تأويل شدّد عليه الشوامّ - شكيب أرسلان في جنيف ورشيد رضا ومحبّ الدين الخطيب في القاهرة - لأنهم أوّلوا الواقعة على ضوء تجربتهم الشخصية. اعتقدوا أن ما تقوم به فرنسا في المغرب صورة مكرّرة لما تفعله في وطنهم الشام.

هذا التحليل هو ما أربك الساسة الفرنسيين في الرباط، وأكثر منه في باريس، لأنه لم يخطر على بالهم قط، وإن روّج له بعض الصحفيين والكتّاب .

المشكل المطروح ومنذ مدّة مشكل قانوني: كيف يتمّ استئناف الأحكام التي تنطق بها المحاكم العرفية في المناطق غير المعرّبة؟

كان من المنطق أن تنشأ غرفة خاصّة لدى محكمة الاستئناف المخزنية. لكن أصحاب المصالح، ضمنهم المحامون الأوروبيون المتذمّرون من أحكام قضاة الشرع في النزاعات العقارية، كانوا يدعون إلى أن يسند الاستئناف إلى المحاكم الفرنسية، آملين أن يؤثّر هذا الإلحاق في سير المحاكم العرفية ذاتها وإدماجها تدريجياً في النظام القضائي الفرنسي.

وهذه النقطة بالذات هي التي أغضبت أعضاء المخزن لأنها تضرّ بهيبتهم وبمصالحهم الماديّة. من منهم لا يملك ضيعة في دائرة بني نضير أو بني مجيلد؟ عبّروا عن استيائهم لكن بدون جدوى لأن المسؤولين في المقيمية العامة، بعد رحيل ليوطي، تعوّدوا على الاستخفاف بآرائهم.

لم يكن في مقدور هؤلاء الأعيان النزول إلى الشارع للاحتجاج ضدّ الظهير، فشجّعوا، بوسائل خفية، على التظاهر الشبّان وهم من أبنائهم وأقاربهم والمرشّحين إلى خلافتهم لو ظلّت الحماية وفية لوعودها.

وطبعاً بعد الانطلاقة، والصدى الواسع الذي لقيته في المجال الدولي، مسّ الاحتجاج شرائح أخرى من المجتمع داخل المدن، بل في بعض المناطق الريفية المجاورة. الحاصل هو أنه لولا موقف المخزن السلبي والهوة المتزايدة بينه ورؤساء إدارة الحماية، لما كان للمظاهرات والمسيرات ذلك الأثر القوي في المغرب وفي فرنسا.

في آخر المطاف لم تؤسّس محاكم عرفية على النمط الفرنسي، كما كانت تأمل الجالية الفرنسية، بل تمّ تنظيم استئناف الأحكام العرفية على الشكل الذي قرّرته الإدارة والذي كان المطلوب الأول والأساس.

46 - وماذا عن سياسة الأعيان؟

- يقال إنها كانت سياسة ليوطي وإن أعداءه وهم كثيرون كانوا يحبّذون القفز فوق رؤوس الأعيان والتعامل مباشرة مع شيوخ القبائل، إذ تبدو هذه السياسة أكثر ملاءمة لمبادئ الجمهورية الفرنسية، الأمر الذي جعل الزعيم الاشتراكي جان جورس يؤمن بها.

الواقع هو أن سياسة موالاة الأعيان ضرورة لا مفرّ منها في بداية كل غزو استعماري.

الحماية جاءت نتيجة مفاوضات. مع مَن؟ مع الأعيان، أعضاء المخزن المسؤولين عن إدارة البلد. لم يغادروا الميدان بعد الهزيمة كما حصل في الجزائر، لم يُسحقوا سحقاً كما حصل في تونس، لم يُطردوا إلى الأطراف، لم ينفوا . . بل ظلّوا في أماكنهم قاعدين. كيف التصرف معهم سوى تأليف قلوبهم وكسب ولائهم بالوعد القاطع أن لا ضرر يلحقهم، وأنهم سيحافظون على وظائفهم وأن أبناءهم سيخلفونهم، إن هم تكيّفوا مع الوضع الجديد بتعلّم لغة الرؤساء الجدد والتدريب على أساليبهم في السياسة والتدبير.

من هنا المبادرة بتأسيس مدرسة خاصّة بأبناء الأعيان تعدّهم للقيام بدورهم الجديد.

هذا ما فعله الإسبان في منطقتهم وما فعله الإنجليز في البلدان التي استولوا عليها عن طريق الاتّفاق والتفويض كالهند ومصر.

الفرنسيون أنفسهم حاولوا تطبيق نفس الخطّة في الجزائر أيّام حكم نابليون الثالث وفي الهند الصينية.

إلا أن هذه السياسة تصطدم حتماً بمصلحة المعمّرين. استقدام أفواج متزايدة من المعمّرين اختيار سياسي يمليه الوضع الداخلي في البلد المستعمر. فلا بدّ أن يتعارض عاجلاً أم آجلاً مع سياسة الأعيان التي تعد دائماً باستمرار الوضع السابق

على الاستعمار. حصل نفس الأمر لإنجلترا ذاتها في أفريقيا الشرقية والجنوبية.

تستمرّ سياسة الأعيان وتنجح إذا كانت هناك دولة قبل الاستعمار، وإذا ظلّ عدد المستوطنين ضئيلاً بالنسبة للسكّان الأصليين. في حالة المغرب توافر الشرط الأول دون الثاني، فطويت صفحة سياسة الأعيان - أي تقوية نفوذ المخزن - مع نهاية ولاية ليوطي.

حينها بدأ صرح الحماية يتصدع، إذ لم يكن في الإمكان معاملة المغاربة معاملة الأمريكان للهنود الحمر.

47 - كيف كانت العلاقات بين الفرنسيين والمغاربة في الحياة اليومية؟

- نقرأ تحليلات مستفيضة بقلم موظّفين كبار أو باحثين مرموقين في مجال التاريخ أو الأنثروبولوجيا أو اللسنيات، نتصفّح روايات «كولونيالية»، استطلاعات صحفية، فتأخذنا الدهشة ونتساءل: هل عاش هؤلاء الأفراد حقّاً في المغرب وخالطوا المغاربة؟

والواقع هو أنهم بالفعل عاشوا طويلاً بين أظهرنا وعاشروا مغاربة من شتى الحيثيات وتعلّموا اللهجات. ورغم كل هذه المؤهلات، أو ربما بسببها، لم يروا الأيام تمرّ.

ظلوا أوفياء لمبدأ المارشال ليوطي، أي عزل المدينة

الأوروبية الجديدة عن المدينة الإسلامية العتيقة حتى يحصل تساكن وتجاور، لا تمازج واختلاط ينشأ عنه طمس ومسخ.

حتى الفرنسي المتحرّر المتسامح يتصرّف مع المسلمين كما يتصرّف حامي الحيوان المريضة أو الضالّة. لهذا السبب بالذات حصل تحوّل عند هؤلاء الفرنسيين المتعاطفين مع المغاربة.

كانوا في البدء يعربون عن إعجابهم بالحضارة العربية ذات الجذور الأندلسية، ثم بالتدريج راحوا يمجّدون سكّان المناطق الجبلية النائية الذين حافظوا على عاداتهم الأصيلة. وهذا يعني أن الفرنسيين والأوروبيين عامّة لم يتصوّروا قطّ إمكانية الامتزاج مع المغاربة في أي ظرف من الظروف.

من بداية إلى نهاية إدارة الحماية ظلّت الفكرة السائدة عند الفرنسيين هي ضرورة وجدوى الفصل والتمييز، التساكن والتجاور بدون اختلاط أو تزاوج .

هذا التصوّر العامّ لا يمنع بالطبع من ربط علاقات جدّ ودّية على مستوى الأفراد. لا يمنع التعاضد بين الزملاء في المهنة، التعاضد بين التلاميذ والطلبة، بل التزاوج في حالات نادرة.

كانت لكلّ فرد مغربي تجربته الخاصّة مع الأوروبيين. وكما لا يجب الاستنتاج من التصوّر الرسمى للعلاقات الفرنسية - المغربية عدم وجود أية صداقة وأي تفاهم، لا يجب كذلك الاعتقاد ان الصداقة بين بعض الأفراد كانت ستقود حتما

وبالتدريج إلى ظهور أمة جديدة مكوّنة من المغاربة الأصليين و«مغاربة» مستوطنين. تطوّر من هذا النوع يتطلّب مرور أحقاب وأحقاب وفوق ذلك يستلزم عدم وجود دولة، عدم وجود مجتمع منظّم قبل الغزو الاستعماري.



4

48 - تعقيباً على الملاحظة الأخيرة هل وجد على الدوام شعب مغربي، أمة مغربية؟

- شتّان بين ما نعلم وما نعتقد. والأغلبية تعتقد قبل أو دون أن تعلم.

ما نعلم، حين نعلم، هو أن الرقعة الأرضية التي نسمّيها المغرب لم تكن دائماً على صورة ما نرى اليوم. تكوّنت بالتدريج بجبالها وسهولها وشواطئها. بالتدريج فصلها البحر عن الاندلس، بالتدريج فصلتها جبال الأطلس عن باقي المنطقة. ثم بالتدريج عمرتها أقوام جاءت من شتّى الجهات.

حافظت في البدء على مميّزاتها، فكانت قبائل، ثم تمازجت فتألفت جماعات أوسع تتماثل أعرافاً وتقاليد ولهجة، ثم خضعت بالتدريج إلى سلطة واحدة. توالت النزاعات إلى أن تمّت الغلبة لفرد تحت لواء واحد مع التطلّع إلى التوسّع المستمرّ.

فكانت بالتالي حركة مدّ وجزر فيما يخصّ الحدود. هذه هي القاعدة، تنطبق على المغرب وعلى غير المغرب.

هذا ما يقوله المؤرّخ، لكن قول المؤرّخ لا يرضي إلا المؤرّخ أو من له مزاج المؤرّخ.

أما سواه فلا يرى شيئاً وراء الحاضر. يتطلّع إلى الثبات والاستقرار، إلى الطمأنينة، فيسحب أوضاع الحاضر على الماضي. يرى في الحاضر الهدف الذي كانت ترمي إليه كل المشاريع السابقة.

يرى أنه كان مقدّراً أن يبسط الشعب المغربى المتّحد، المتميّز منذ فجر التاريخ، سلطانه على الأرض التي وهبها له الخالق، والتي تمتدّ من طنجة إلى قلب الصحراء. هذا ما خطّط له إدريس الأول وأنجزه خلفه ثم سار على أثره السلاطين الكبار من كل الأسر المتعاقبة على عرش المغرب. منهم من أدرك الهدف ومنهم من وقف دونه ومنهم من تجاوزه، لكن الجميع ظلّ وفياً لنفس التصوّر ونفس المسعى.

وهذا التصوّر هو الغالب على ذهن ساكن مدينة مرّاكش، حتى الأقلّ ثقافة. المعالم التي يحاذيها كل يوم تذكّره بالماضي، إن لم يكن منشغلاً بكسب قوته.

وبالطبع كان هذا المنظور ينافي ما يعتقده ويروّجه بشتّى الوسائل الأجانب، سيما موظّفو إدارة الحماية الذين يقولون ويؤكدون أن المغاربة لم يكونوا أبداً شعباً متميّزاً ولا أمة موحّدة، وأنهم كانوا دائماً عبارة على عدة قبائل متنافرة. لا يوالون السلطة المركزية إلا بهدف قهر جيرانهم، وإذا منعوا من

ذلك انقلبوا على تلك السلطة وحاربوها بشراسة. لم تكن لديهم الوسائل المادّية التي تقرّب بين السكّان في الأمم المتقدّمة، لا طرق معبّدة، لا عملة واحدة، لا مكاييل مستقيمة، لا لهجة منمّطة. العامل الموحّد الوحيد هو الدين وهذا بدوره يختلف في التطبيق من ناحية إلى أخرى، كما يختلف الوشم واللباس والطبخ، إلخ.

ما أكثر الدراسات الإثنوغرافية التي لم يكن لها من داع سوى تضخيم عوامل التناثر والتشتّت.

قد يقول البعض اليوم إن نظرة الأجانب كانت أقرب إلى الواقع من نظرة الوطنيين التي لم تكن سوى أمنية محبّبة للنفوس.

نعم، كانت أقرب للواقع القائم تحت الحماية، لكن هل كانت قائمة بالصورة ذاتها في الماضي؟ هل مقدّر لها أن تظلّ قائمة إلى الأبد؟

ثم هناك مفارقة لم تجد لها الحماية حلاً مرضياً، وهي أن كل مبادراتها - والحماية لم تتوقّف عن أخذ المبادرات في مجالات عدّة - تعمل هي نفسها على زعزعة هذا الواقع. تقول إن وسائل الوحدة لم تكن موجودة في الوقت الذي كانت تنشئ هي تلك الوسائل.

وكلّما زاد تماسك المغاربة وجدوا له في التاريخ مبرّرات تجعله يبدو وكأنه كان دائماً موجوداً بالقوة وينتظر فقط الفرصة المواتية، ولو على يد الأعداء، ليتجسّد في القول وفي السلوك.

49 - ما هي رقعة المغرب ؟

- لو كان تأويل الإثنوغرافيين هو الصحيح لجاء تصوّرنا لرقعة المغرب في حدود منطقة الحماية الفرنسية، كما هو الحال في غالب دول أفريقيا السوداء الحالية. الحقيقة هي أننا كنّا دائماً نتصوّر مغربين، مغرب الحافلات الذي أشرت إليه سابقاً، أي الذي كنّا نستطيع أن نتجوّل في أنحائه بمجرّد سحب تذكرة سفر، من وجدة إلى أكادير ومن تازة إلى زاكورة، مغرب لا يضمّ تطوان أو طنجة أو ايفنى، إذ التوجّه إلى تلك الأماكن يتطلّب أكثر من تذكرة سفر. فيحضر في الذهن مغرب آخر أوسع من مغرب الحافلات. كوني لا أستطيع أن أذهب إلى طنجة بالسهولة التي أتوجّه بها إلى أسفي لا يعني أنها خارج المغرب. كنّا نضع تطوان وطنجة وسبتة في مرتبة وجدة وتيزنيت، وإن لم ننوِ زيارتها لصعوبة الالتحاق بها، لكن لا نضع في خريطتنا الذهنية تلمسان أو مغنية.

وهذا التصوّر «العامي» يتماشى مع الوضع القانوني الدولي، إذ المناطق التي أصبحت فيما بعد من «المتنازع عليها» لم تكن آنذاك في حاجة إلى ترسيم حدودها بما أنها «لا تزرع ولا تسقى» حسب عبارة اتّفاقية للا مغنية لسنة 1845.

50 - ما هي عناصر الأمّة المغربية؟

- أفهم من السؤال ما هي مكوّنات الشعب المغربي؟ هو

كغيره من شعوب الأرض خليط من أقوام جاءت من الجهات الثلاث، من الشمال، ومن الجنوب، ومن الشرق. وإلى حدّ الساعة لا أحد يعرف بالضبط متى وكيف، رغم الأفكار المسبقة التي نحملها جميعاً.

لذلك أكتفي بإبداء ملاحظات مقتضبة.

يقع في هذه المسألة خلط بين مكوّنات الطبقة الحاكمة ومكوّنات ساكنة المدن ثم مكوّنات عامّة الشعب. لا يوجد تطابق بين هذه المكوّنات المختلفة.

المكوّن الأندلسي موجود في المخزن وغير موجود في ساكنة الجبال، المكوّن الحرطاني موجود في الواحات وغير موجود على مستوى المخزن، المكوّن اليهودي موجود بين ساكنة المدن وغير موجود في أغلب المناطق الفلاحية.

الملاحظة الثانية هي أن مجيء المكوّن العربي متأخّر جدّاً بالنسبة للعنصر الأمازيغي وبأعداد قليلة لم تؤثر في المجموع.

إذاً، وهذه هي الملاحظة الثالثة والأخيرة، العنصر البشري في المغرب متجانس. وهو ما دلّت عليه كل البحوث الأنثروبولوجية التي جاءت مناقضة لما كانت تروّج له الإدارة الفرنسية. لا يوجد فرق واضح بين السكّان يشير إلى اختلاف في الأصول الإثنية.

الفرق الوحيد الذي ظلّ قائماً إلى يومنا هذا هو المتعلّق باللسان. هناك مغاربة ناطقون بلهجات عربية وآخرون ناطقون بلهجات أمازيغية.

طوال السنوات التي عشتها، قبل وبعد الاستقلال، لم

نكن نعير لهذا الفارق أهمّية كبرى. نعلم أن الأجداد تكلّموا الأمازيغية مدّة قرون ثم تكلّموا العربية بعد انتشار العقيدة الإسلامية، وأخيراً لم يعد يعرف قسم من السكّان، سكّان المدن الكبرى بخاصّة، سوى اللغة العربية. مثلنا في هذا الباب مثل شعوب كثيرة.

يبدو أن الوضع بدأ يتغيّر وبسرعة أثناء العقدين الأخيرين. وبالطبع سيعاد النظر في تقييم الماضي. ما كان يظهر تقدّماً، تطوّراً إيجابياً، قد يراه البعض تنكراً وانتكاساً.

لا يمكن للمؤرّخ أن يجزم بما سيقع.

كتبت مرّة أني لم أشعر أبداً أني أنتمي إلى أقليّة تحتاج إلى سلطة تحميها. أتفهم جيّداً أن مثل هذا التصريح قد يخدش كرامة البعض، لكنّي قلت ما قلت تعبيراً عن تجربة. المغرب الذي عشت فيه وأنا شابّ، عند تكوين وعيي الوطني، هو مغرب محدود، مغرب المدن الكبرى والمتوسّطة. سكّانه كانوا في أغلبهم على نمط واحد، كنت أشعر أن لا فارق من أي نوع بين مغربي ومغربي آخر.

لو كنت سافرت إلى مناطق نائية لكان الوقع في وجداني مختلفاً.

51 - ما هي أهمّ فترات تاريخ المغرب؟

- قلت إن هواء مرّاكش سعدي.

الحقيقة هي أن المغرب الحديث نشأ مع الدولة السعدية.

ليس من باب المصادفة أن تكون أغلب الوثائق المحفوظة في خزائن الدول الأوروبية الكبرى والمتعلّقة بالمغرب تبدأ مع دولة «الأشراف الفيلاليين»، حسب تعبير الباحث المكلّف بجمعها ونشرها في عهد المارشال ليوطي.

السعديون أنفسهم، في علاقاتهم مع السلاطين العثمانيين، تصرّفوا تصرّف الموحّدين تجاه الأيوبيين، غير أنهم اتّجهوا نحو الجنوب وأعرضوا عن الشمال وعن الشرق.

لا ننسى أن رقعة المغرب السعدي هي الأكبر في تاريخ هذا الوطن.

52 - والفترة الرومانية؟

- مثلها مثل الفترة العربية الأولى- قبل مجيء إدريس الأول وتأسيس مدينة فاس- ومثل الفترة المغراوية السابقة على عهد المرابطين.

أحداث هذه الفترات كلّها تهمّ شمال المغرب وحده، إلى غاية وادي سبو وربّما وادى أبي رقراق. طوال تلك الفترة كان المغرب الشمالي تابعاً لسلطة خارجية - روما، دمشق، بغداد، قرطبة.

إلحاق الفترة الرومانية بالتاريخ الوطني المغربي اختيار سياسي ينمّ عن تنظير جديد للوطنية المغربية. لم يكن الأمر يخطر على بالنا ونحن طلبة.

53 - هل تأثّر المغرب دائماً بحضارة الغير؟

- ظاهر السؤال استفزازي.

وبالفعل طرح مراراً بهذا المعنى. قال أحدهم إن الإنسان الشمال-إفريقي هو المتخلّف بامتياز في محيطه الحضاري. يعني أنه لم يشارك بأي قدر في تقدّم الحضارة ولم يسبق إلى أي اختراع يرفع من قدرة أو قيمة الإنسان.

التحامل واضح إذ هذه هي حال أغلب سكّان الأرض. الاختراعات الكبرى معدودة، تظهر في بقعة معيّنة ثم تنتشر وقليلاً ما تتجدّد في نفس المكان. من هنا أمكن الكلام عن انتقال الحضارة من الشرق إلى الغرب ثم من الغرب إلى الشرق. معظم شعوب المعمورة تلقّت الحضارة من الخارج.

إذا طرح السؤال بدون أية نية تبخيس فلا حرج أن يكون الجواب نعم.

جاءت الحضارة إلى المغرب من الخارج، من الشرق ثم من الشمال. هذا في ما يتعلّق بالتاريخ القريب، أمّا ما قبله فأمره مجهول، كما لا يزال مجهولاً أصل السكّان.

54 - هل يمثّل الإسلام قطيعة؟

- ومن يقول ذلك؟

أول من يقول ذلك المسلمون إذ يؤكّدون أن الإسلام يجبّ ما قبله ويؤوّلون القاعدة التأويل الخاطئ.

ثم يقول ذلك الأجانب، أنصار الحضارة الرومانية. يتأسّفون لأنها لم تظلّ حيّة في هذه الأرض كما ظلّت حيّة في إسبانيا وفرنسا.

يقولون الإسلام قطيعة ولا يقولون المسيحية قطيعة مع أن الرومان نظروا إليها هذه النظرة بالذات طوال أربعة قرون. يركّزون على مقاومة البربر للإسلام وينسون أن الشعوب الرومانية قاومت المسيحية، وهي ديانة شرقية، مقاومة أطول وأعنف وبأدلّة تحتفظ بوجاهتها إلى يومنا هذا.

يكون هؤلاء أقرب إلى الصواب لو قالوا إن دين التوحيد يمثّل قطيعة. وإذا كان التوحيد قطيعة، فلا يمكن أن يكون الإسلام كذلك، إذ لم يفعل سوى إبدال توحيدٍ محتشمٍ بتوحيد صريح.

55 - كيف ترى تدخّل المغرب في الأندلس وفي السودان الغربي؟

- بالنظر إلى ظروف الماضي، المادّية والأدبية، لم يكن يتصوّر عدم التدخّل في الأندلس وسائر الغرب الإسلامي. بالنظر إلى المصلحة الوطنية، في مفهومها المعاصر- وربّما هذا اعتبار لا يقرّه المؤرّخ - كل ما يمكن أن نفعل هو اعتبار النتائج.

التدخّل الذي لم يخلّف سوى نتائج سلبية هو محاولة

إخضاع المغرب الأوسط والأدنى. التدخّل في السودان كان إيجابياً على المدى القريب وسلبياً جدّاً على المدى البعيد.

لكن المصلحة الوطنية لم تتّضح إلا أثناء العهد العلوي الثاني، وبالضبط أثناء حكم السلطان محمّد الثالث. فأدّت إلى العزلة والانزواء.

56 - هل توجد فترة مغمورة من تاريخ المغرب؟

- الفترة المغمورة حقّاً هي التي سبقت دخول أرض المغرب تحت ضوء التاريخ. وهذه من اختصاص علماء الآثار. دراستها بالمناهج المعتمدة لديهم هي وحدها الكفيلة بالإجابة عن السؤال المطروح أعلاه: هل سكّان المغرب الأصليون أبدعوا شيئاً ما أم اكتفوا دائماً بتقليد غيرهم ؟

أثناء التاريخ المعروف كلّما فقد المغرب استقلاله، أو ضعفت السلطة المركزية، فانقسم إلى إمارات ودويلات كما حصل في القرنين السابع والعاشر الميلاديين وعند الانتقال من أسرة حاكمة إلى أخرى، أيّام الوطّاسيين والدلائيين مثلاً، انقطع حبل التاريخ المغربى. هذه الحقب ليست مغمورة بقدر ما هي غير مدروسة بما يكفي لندرة وتناثر الوثائق المتعلّقة بها وكذلك لعدم الاهتمام بها.

أما الاعتقاد أن هناك فترة نيّرة ساطعة تفوق تألّقاً وعظمة ما أنجزه الموحّدون ثم السعديون ولا تزال إلى اليوم دفينة

الخزائن والأطلال، أمريكا جديدة مجهولة تنتظر من يستكشفها ليبهرنا بذخائر وكنوز نعجز حتّى عن تصوّرها، فهذا الاعتقاد يدلّ فقط على أنّنا غير راضين على تاريخنا المسجّل.

لا يقنعنا فنتوق إلى ما هو أسمى منه.

57 - هل هناك نفسانية مغربية؟

- يحلو لنا أن نعتقد ذلك، كما اعتقده قبلنا سكّان المغرب منذ زمن طويل. اعتقدوا أن الإنسان المغربي يختلف عموماً عن المشرقي المسلم، بل حتى عن التونسي والواسطي [الجزائري].

الفرد المغربي يعرف بالطبع أنّه يختلف عن مغربي آخر، سحنة أو لهجة أو انتماءً إلى قبيلة أو زاوية ، لكنّه يرى، حقّاً أو باطلاً، أن وراء هذه الفوارق الطبيعية والقوية توجد صفة أو صفات، على مستوى معيّن من الوعي أو اللاوعي، تطبع المغربي وتميّزه عن غيره حتى ولو كان مسلماً أو عربياً أو مغاربياً.

ما هي يا ترى تلك السيمات الخاصّة؟

لا أحد يعرفها بالضبط. لا إجماع إلا على نقطة واحدة وهي أنها موجودة.

أظنّ شخصياً أن لها علاقة باستمرارية سلطة المخزن التي هي وطنية محلية، مستقلّة عن أية قوة خارجية.

قلت هذا في أحد كتبي فظنّ البعض أن في هذا الكلام تمجيداً للمخزن في حين أنه ملاحظة أنثروبولوجية.

58 - هل لها سلبيات؟

- نعم لها سلبيات كثيرة.

أوضحها وأكبرها ضرراً للمجتمع هو التهرب من تحمّل المسؤولية وتحاشي الحسم في أية مسألة.

تدلّ على ذلك عبارات كثيرة من خطابنا اليومي:

- وا خلاص ..
- على ما حال ..
- المهم ..
- آش حال فيك ..
- وبالتاويل ..
- وهذى بسالة ..
- الله وما طال ..
- ولو طارت معزة ..

جلّ عبارات التبرّم والاحتجاج قد تؤوّل على هذا الوجه.

59 - وعن الثقافة المغربية؟

- الثقافة الشعبية [[الفولكلور] درسها بإسهاب الباحثون

الفرنسيون بدعوى أنّها وحدها تمثّل ثقافة الشعب الأمّي، وأن ما سواها دخيل لا جذور له في المجتمع؛ يشيرون بذلك إلى الثقافة العربية المدوّنة.

الغالب على التراث المكتوب عندنا الفقه والتصوّف، حتّى في المنظوم، حتى في السير والرحلات. يركن تراثنا إلى العقل المجرّد الجافّ أكثر مما يستوحي العاطفة.

حاولت في كتاب أوراق استحضار الوضع النفساني لشابّ غير مرتبط بالثقافة الشعبية، بسبب يتمه ومغادرته مبكّرا الخلية العائلية، وغير مطّلع على ذلك التراث المكتوب، إذ التحق من البداية بالتعليم العصري الملقن باللغة الفرنسية. قلت إن هذا الشابّ كان مهيئاً للتشبّع بروح الرومانسية، والانغماس في أحضان الذات ولا ينقذه من جبروت الأنانية سوى حبّ الوطن.

60 - هل تقوّت أم ضعفت أثناء الحماية؟

- لا شكّ أنها تراجعت لسببين: من جهة بسبب توظيفها من طرف الاستعمار، ومن جهة ثانية بسبب نبذها من طرف الوطنيين. لم يحافظ الفولكلور على أصالته ولم ينتعش أو يتجدّد بل تجمّد ومال إلى الابتذال.

أما ثقافة الفقهاء فبهتت وتهلهلت إثر تدفّق الإنتاج المشرقي.

بدا وكأن المغرب يبحث من جديد عن ثقافة يستعيرها من الغير.

هذا هو البؤس الثقافي الذي اشتكيت منه سابقاً.

61 - لم تكن توجد إذن ثقافة وطنية؟

- بين الفولكلور الممقوت والمؤلّفات الفقهية المملّة اختزلت الممارسة الثقافية في النشاط السياسي. أصبحت الوطنية تمثل كل مظاهر الثقافة، شعوراً، سلوكاً وتعبيراً. واستمرّ هذا الوضع إلى يومنا هذا.

«الكل سياسة» شعار لم ينشأ من فراغ بقدر ما فرضه الوضع القائم، ولا يزال يفرضه، مع كل مخلّفاته السلبية في الساحة الثقافية.

62 - ما علاقة الثقافة الوطنية واللغة الوطنية؟

- العلاقة غير حتمية، نظرياً على الأقلّ. يمكن أن تنشأ ثقافة وطنية بوساطة لغة غير أصيلة. الأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى، ماضياً وحاضراً.

لكن في مغرب الحماية كان النشاط الثقافي لا ينفصل عن

السياسة. ما معنى أن نوجّه رسالة وطنية إلى المحتلّين حتى في حالة إتقاننا للغتهم؟ ولم تكن لغة وطنية مكتوبة سوى العربية «المدرسية». فكان يبدو بديهياً أن الثقافة المغربية العصرية، إن كتب لها أن توجد، لا يمكن أن تعبّر عن ذاتها إلا باللّغة العربية، أو بوسائل غير لغوية كالرسم الذي بدأ يمارسه بعض الشبّان، سيما في مدينة مرّاكش.

الأمثلة التي تساق في هذا الباب [إيرلندا، الهند] غير مقنعة لأن الاحتلال الإنجليزي لهذين البلدين طال إلى حدّ أن قسماً كبيراً من الأهالي أصبح يتقن الإنجليزية ولا يتواصل إلا بها. فكان من الوارد، بل من اللاّزم، مخاطبة هؤلاء بلغة المحتلّ لإقناعهم بمرامي الحركة الوطنية. ما يعني أن الإنجليزية أضحت بقدر ما لغة وطنية. وهذا ما نلاحظه اليوم في ثقافة البلدين.

لم يكن هذا هو وضع المغرب آنذاك.
هل هو وضع المغرب اليوم؟ هذه مسألة أخرى.

5

63 - لماذا أضاع المغرب استقلاله؟

- رسمياً فقد المغرب استقلاله سنة 1912، لكن عملياً أولم يكن استقلاله صورياً فقط منذ أحقاب؟

لهذا ميّز بعضهم الاستعمار والقابلية للاستعمار، أي الاستقلال بالفعل والاستعمار بالقوة. لضبط هذه النقطة الحاسمة في تاريخ المغرب ربّما يجب العودة إلى عهد السلطان سليمان عندما اضطرّ إلى «الإعراض عن الجهاد البحري»، كما يقول الناصري، تحت ضغط أوروبا.

القابلية للاستعمار ناتجة عن اختلال في ميزان القوى نجم عنه انكماش المغرب على نفسه طالباً من الباري أن ينساه العالم بقدر ما قرّر هو أن ينسى العالم. غزا التصوّف فؤاد كل مغربي فأثّر أيضاً في سياسة الدولة. هذا مغزى العبارة المعروفة «كم حاجة قضيناها بتركها».

لنفرض انعدام الأسباب التي تذكر عادة لتبرير حادثة الاستعمار: ضعف السلطة المركزية، السيبة أي انتفاضة

الأطراف والامتناع عن أداء الضرائب والكلف، تناثر الجيش، إلخ. لنفرض كذلك حالة تنافس وتمانع بين الدول الاستعمارية تتيح للمخزن متابعة سياسة التسويف والمماطلة، ماذا كان يحصل؟ كانت تسلب من البلاد أجزاء شاسعة شمالاً وشرقاً وجنوباً ثم يعيش الباقي في وضع اليمن أو أفغانستان.

الحقّ هو أنه لم يكن أمام المغرب سوى استمرار حالة الجمود، وهذا يعني الموت البطيء، وإما الإصلاح بواسطة حماية «لينة».

64 - وماذا عن أحداث 1908؟ هل هي ثورة وضدّ من؟

- القاعدة الفقهية صارمة، واجب الأمير أن يجاهد العدو الكافر مهما كانت الظروف والنتائج المرتقبة إذ العون الربانى دائماً وارد. إن هو تخلّى عن واجبه حكمه العزل.

نلاحظ بالمناسبة أن هذه القاعدة عامّة وليست خاصّة بالمسلمين. الأمير المهزوم مخلوع حتماً.

تمثل أحداث 1908 في الظاهر ثورة على التخاذل، لذلك نجحت وتفهّم أهدافها حتى الأعداء. لكن الثورات تتشابه في آلياتها وتختلف في مآلها ومغزاها التاريخي، إن هي نظرت إلى الأمام أو إلى الوراء.

واضح أن حالة المغرب آنذاك، بكل شرائحه الاجتماعية، حالة التأخر والعزلة والتشاؤم واتّهام النفس والغير، كل ذلك لم

يكن يسمح بظهور حركة واعية ناضجة متفتّحة على المستقبل، ثورة للتجديد والإصلاح.

غير مهمّ ما كان يدور في خلد زعيم الثورة عبد الحفيظ، المهمّ هو ما كان ينتظره قوّاد الجنوب والأطلس المتوسّط من مساندتهم له. مهما يؤوله البعض، إن أحداث 1908 مثلت، وما كان لها أن تمثل، سوى ثورة مضادّة.

قد يقال وهل كانت ثورة حتى يجوز لنا أن نتكلّم عن ثورة مضادّة؟

نعم، كانت ثورة، إصلاحات محمد الرابع والحسن الأول، على تفاهتها وهزالة إنجازاتها، مثلت في ظروف المغرب العتيق ثورة حقيقية، توّجت باقتراحات الإصلاح التي تقدّمت بها فرنسا سنة 1905.

فجاءت حركة 1908 لتلافيها.

65 - هل خانت النخبة المخزنية الوطن؟

- ما أكثر الاتهامات التي توجّه إلى أشخاص بعينهم وذلك قبل وبعد 1912.

بل يدّعي البعض أن وثائق تثبت تلك الخيانة أتلفت عمداً عند استقلال البلاد. والفرنسيون أنفسهم غذّوا هذه التهم والشكوك عندما صرّحوا في كتاباتهم المتوالية أن كل مسؤول في المخزن كان مستعدّاً لبيع ضميره بثمن بخس.

إن كانت بالفعل خيانة فستكشف حتماً عاجلاً أو آجلاً. لكن أهم من خيانة هذا الفرد أو ذاك هو جوّ اليأس الذي عمّ المغرب منذ عقود، يأس نستشفه من كلّ ما وصلنا عن تلك الفترة حتى من المعارضين للحماية.

قناعة الجميع: لا يخلّصنا من هذه المحنة إلا معجزة.

66 - هل السبب سيبة القبائل؟

- سمعت أبي يروي مراراً ما يلي:

كان السلطان عبد الحفيظ رجلاً عالماً حازماً محنكاً. طلع إلى فاس وخاطب تجّارها قائلاً: سبّقوا لي ما أجهّز به الجيش، فأخضع الثوّار وأوقف زحف الفرنسيين. قالوا: ما بيدنا شيء. فجاء الثوّار وأحاطوا بالمدينة. كانوا يصيحون: يا أهل فاس لن يمسّكم منّا سوء، كلّ ما نريد هو أن تسلّموا لنا عبد الحفيظ الأقرع. بين تهديد العامّة الجهّال وتقاعس الأعيان الجبناء لم يبق للسلطان المحاصر سوى الاستنجاد بالأجنبي. فكاتب قائد الجيش الفرنسي قائلاً: آتوني بقوة ولكم عندي ما تريدون. كان المسكين يتصوّر أن الفرنسيين يريدون تعويضات مالية، تسهيلات تجارية، امتيازات سياسية، إلخ، ولم يكن يعرف أنهم قد حسموا أمرهم وقرّروا أن لا يقبلوا سوى التفويض الكامل للسلطة حتى يمكن لهم أن يتصرّفوا في البلاد كما يحلو لهم.

المخزن والسيبة وجهان لعملة واحدة.

المخزن مرغم على إصلاح شؤونه، فلا بدّ له أن يستبدّ ويجور، والسياب يستثقلون الجور فيعارضون أي نوع من الإصلاح.

67 - سبقت الحماية العامّة الحماية الفردية، هل تمثل هذه صورة من صور الردّة؟

- هذا حكم الفقيه.

للحماية الفردية أمثلة عديدة في الماضي، أفتى في شأنها فقهاء كبار. من يفتي بالردّة يجاري هوى السلطان.

هل هي خيانة؟ خرق لإجماع الأمّة؟ هنا يستطيع المؤرّخ أن يقول كلمته، سيما وأننا لا نزال نرى أوضاعاً مماثلة، في المغرب وخارجه. ما لا جدال فيه هو أن من يحتمي بالأجنبي، مهما تكن الدوافع والظروف، عليه أن يقبل مسبقاً نتيجة اختياره أي مقاطعة إخوانه له. من غير المعقول أن يكسب من الجانبين، ممّن يهجر وممّن يهاجر إليه.

68 - هل كانت الحماية العامّة حتمية؟

- كنا ونحن طلبة نستعرض الأحداث التي جرت في الفترة التي امتدّت من 1900 إلى 1912، فنتأسف: آه لو لم تتخلّ

إنجلترا عن امتيازاتها! آه لو صمدت ألمانيا! آه لو كانت إسبانيا قادرة على معارضة فرنسا! آه لو اندلعت الحرب قبل 1914! اعتقاداً منّا أن الحماية، والفرنسية بالذات، جاءت بالمصادفة وأن انحرافا طفيفاً في تسلسل الأحداث كان يضمن استمرار استقلال المغرب.

الواقع هو أن المغرب عاش منذ قرون تحت تهديد الاحتلال الشامل، إذ عرف عدّة مرّات احتلالاً جزئياً. تضاعف هذا الخطر بعد 1830.

عندها أدرك الجميع، أعني الطبقة الحاكمة، ضرورة الإصلاح. لكن ما إن فاه الناس بالكلمة حتى كساها الإبهام. وقع، ولا يزال يقع عند بعض المحلّلين، التركيز على قلّة الوسائل وعلى عدم جدواها. لكن قبل هذه العقبة كان يوجد حاجز آخر أدبي وأخلاقي أكثر منه مادّي.

بغتة اكتسى الإصلاح مظاهر التنكّر والعقوق. فقيل: لا صلاح لمن لم تصلحه السنّة.

هذا أقصى ما أدركه عقل الفقهاء المصلحون.

فعاد من اللاّزم فرض الإصلاح بالقهر. لكن لا أحد في البلد، فرداً أو جماعة، كان يملك القوة أو النفوذ الروحي لتصوّر خطّة إصلاحية وفرضها على الجمهور بحدّ السيف، كما فعل بتروس الأول في روسيا أو مصطفى كمال في تركيا.

عندها اقتنع العقلاء أن المغرب لن يعرف النظام إلاّ على يد الأجنبي.

69 - هل كان من مصلحة المغرب لو كانت الدولة الحامية غير فرنسا؟

- الدولة الوحيدة التي رفض المغاربة دائماً وأبداً أن تكون وصيّة عليهم هي إسبانيا، والأسباب معروفة. الإسبان أنفسهم كانوا يعلمون أنهم عاجزون عن احتلال مجموع المغرب والاستقرار فيه، وأن عليهم في كلّ الأحوال أن يتسلّلوا داخل البلاد مستظلّين بدولة أوروبية أقوى منهم، تعترف لهم ضمنياً بما يدّعون أنه حقّهم التاريخي.

عاب الوطنيون على السلطان الحسن الأول رفضه، دون تمحيص ونقاش معمّق، مقترح إنجلترا سنة 1890 والقاضي بفرض حماية ليّنة مخفّفة، معتبرين أن هذا الرفض، المرفوق باستعداء الدول الأوروبية الأخرى ضد إنجلترا، لعب في أيدي الفرنسيين.

ظن المغاربة طيلة عقود أن الألمان سيعاكسون باستمرار أطماع فرنسا وإن تظاهروا أحياناً ببعض الليونة، وهذا حتى بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى. في واقع الأمر أية حماية ألمانية قبل الحرب كانت تؤدي حتماً إلى «وزيعة»، تقسيم المغرب تقسيماً أكبر مما حصل بعد 1912. ربّما كان المغرب يكسب امتداداً صوب الجنوب، لكنّه كان يخسر يقيناً مناطق ناحية الشرق وكان هذا الوضع سيستمرّ بدون شكّ حتّى لو ورثت فرنسا الكل بعد هزيمة ألمانيا تحت غطاء «وصاية» من عصبة الأمم.

أما عن حماية إنجليزية فلا أحد ينكر أنها كانت جدّ ممكنة لو توافرت للمغرب نخبة واعية مثقفة جريئة كالتي تواجدت عند الحاجة في روسيا وفي تركيا، وأنها كانت تكون أجدى وأنفع للوطن على كلّ المستويات. والدليل على هذا القول هو أن «عبقرية ليوطي» لا تعدو أن تكون استلهاماً لمبادئ السياسة الإنجليزية، سياسة الأعيان والعمل تحت راية المخزن. لو ظلّت سياسة من جاء بعد ليوطي وفية لتلك المبادئ، لو لم تشجّع إدارة الحماية الاستيطان الأوروبي وتزرع في الأذهان فكرة تقاسم السيادة، لمرّ المغرب بتجربة «إنجليزية» تحت رعاية فرنسية، وبالطبع لزاد تباعداً عن جيرانه في منطقة المغرب.

70 - ما قولك في الحركة السلفية؟

- أشير بدءاً إلى أن لا علاقة لها البتّة بسلفية اليوم. الاسم خادع.

الحركة المعروفة بهذا الاسم، والتي تعتبر توطئة للحركة الوطنية، هي امتداد لحركة سابقة كان يغذّيها المخزن ويقوم بها العلماء الموالون له. كان الهدف منها توحيد الولاء: الربّ واحد في السماء والسلطة واحدة على الأرض.

الظاهرة الجديدة في هذه الحركة هي طابعها الاجتماعي المدني. حتى محاربة الزوايا لم يعد هدفها الأول سياسياً بل

عاد اجتماعياً. لم تعد الزاوية تحارب لأنها تناهض الأمير بل لأنها تشجّع على التبذير، وبالتالي على إهدار ثروات المغاربة المسلمين ومنعهم من منافسة أعدائهم على قدم المساواة.

الجانب التجاري المدني واضح هنا.

الحملة ضدّ تبرّج النساء - الذي شارك فيها عبد الحي الكتّاني الشابّ وهذا أمر يستحقّ أن يسجّل - كانت تهدف بالطبع إلى توطيد سلوك الحشمة في بيئة كثر فيها الكفّار، لكن كانت تتوخّى أيضاً، وربّما أساساً، التقليل من فرص التسوّق في الدكاكين الجديدة التي يملكها في الغالب النصارى واليهود. المرأة الملازمة لبيتها لا يراها الكافر وفي نفس الوقت لا يستهويها بالأقمشة الجديدة والحلي الجديد.

ما أقوله هنا ليس تأويلاً منّي بل هو مبيّن بوضوح في كتابات دعاة السلفية.

في نفس الوقت التركيز على إصلاح الذات يلهي عن إصلاح المحيط العام وتركه لهمّ ومسؤولية الأجنبي الدخيل. كما لو حصل توزيع الأدوار مع الإقرار بشرعية الواقع القائم أي الخضوع موقّتاً لسلطة الحماية.

71 - هل نجحت الحماية في مهمّتها الإصلاحية؟

- لا شكّ أن إدارة الحماية نجحت على المستوى المادّي.

مهّدت البلاد، مدّت السكك الحديدية، عبّدت الطرق، رمّمت المدن القديمة وشيّدت مدناً جديدة، نقّبت عن المعادن، غرست الأشجار، قاومت الأمراض الفتّاكة، إلخ. قامت أحسن قيام بما أصبح يعتبر في التاريخ الحديث دور الدولة الرئيسي والذي كان غائباً عن أذهان حكّامنا التقليديين، سيما في القرون الأخيرة.

أمّا الإصلاح على المستوى البشري، تنوير الفكر، تجديد العلاقات الاجتماعية، شحذ الهمم، إلخ، ففي هذا الأمر نظر، إذ يتداخل فيه الإيرادي والعرضي. أخطأت إدارة الحماية ما استهدفت - الجمود على الموجود - وأصابت ما كانت تتحاشاه.

مهما قيل عن تخبّط الساسة الفرنسيين وتعارض الأهواء والمصالح لديهم، لا شكّ في أن معظمهم، وأكثر منهم الإسبان، كانوا يتمنّون أن يذوي ويضمحلّ، تدريجيًا وعلى كل المستويات، المجتمع المغربي وهو ينافس المجتمع الأوروبي النشيط. فيحصل طبيعياً اقتسام فعليّ للأرض يفرض نفسه في آخر المطاف على الجميع.

هذه الأمنية كانت تبدو للجميع أنها ستحصل لا محالة بعد أجل معقول. ثم حدث ما لم يكن في حسبان أحد، أعني الانفجار السكّاني.

يقال إن السبب هو تحسّن الوضع الصحّي، هذا تعليل ناقص. منذ القديم والكلّ يعتقد أن أية جماعة بشرية مغلوبة على أمرها، منكمشة على ذاتها، راضية بقسمتها، آيلة لا محالة

إلى التفكّك والانقراض، والكلّ يتمثّل مآل الهنود الحمر. يتعثّر المشروع فقط إذا ظلّ عدد المستوطنين ضئيلاً، وهو غير حال المغرب. رغم النمو المهول للجالية الأوروبية، ومضايقتها المتزايدة للمغاربة في كل المجالات، تضاعف عدد المغاربة المسلمين بقدر قلب ميزان القوى في ظرف عشرين سنة.

فى رأي منظّري الحماية كانت مثلاً المدينة الإسلامية العتيقة ستظلّ على الدوام محاصرة، تطوقّها باستمرار مدينة أوروبية تنمو وتتّسع باستمرار. فإذا بمدن الصفيح تنشأ بسرعة فائقة وتحاصر بدورها المدن الأوروبية، تمنعها من التوسّع وتجعلها مهدّدة من الأمام ومن الخلف. فشكّلت هكذا صورة رمزية لمصير الحماية كلها.

خلاصة القول أن الحماية كانت تستحقّ أن تنعت بالإصلاحية لو سبق إصلاح المحيط المادي إصلاح أدبي يقوم به أبناء البلد.

لكن هذا التوافق العضوي ليس بالمألوف في مجرى التاريخ.

6

72 - كيف تعرّف الوطنية؟

- من السهل الاستظهار بالبديهيات: الوطنية هي شعور وسلوك وتطلّع.

الشعور هو الاعتزاز بالذات وبالأجداد.

السلوك هو الإيثار والتضحية.

التطلّع هو طلب الحرية والتقدّم والرفاهية.

كل هذا صحيح لكن في فترات محدّدة ومن زوايا مختلفة، وربما متعارضة. ثم هذا التحليل يغفل ظاهرة مريبة.

كيف يمكن للوطنية، مهما يكن مضمونها، أن تكون بعد أن لم تكن؟

هذا معطى أوّلي، وإلّا ما الداعي إلى توعية، تبشير، دعوى؟

نقول إن المغاربة قاوموا البرتغال والإسبان لكن نسمّي عملهم جهاداً. نفاخر بما أنجزه ابن عبد الكريم في الريف وموحى وحمو في الأطلس المتوسّط لكن نسمّي ذلك مقاومة

مسلّحة. في الحالين نتحاشى عمداً لفظ وطنية ونفضّل الكلام عن إرهاصات، سوابق، ممهّدات، إلخ. فنعترف ضمنياً أن الوطنية، كالدولة أو المدينة أو الطبقة، أمر حادث.

الوطنية شعور فردي وحركة اجتماعية وإيدولوجيا سياسية. من كل هذه الوجوه هي ناشئة؛ لها جذور وأصول؛ لها أيضاً بواعث وعوائق، دوافع وموانع.

أي تعريف مجرّد للوطنية لا يفيد كثيراً لفهم حالة خاصّة كالوطنية المغربية. قد نجد في التعريف العامّ جانباً مفيداً لكنه محاط بجوانب كثيرة لا تنبطق على الوضع المغربي. لو غاب عن ذهننا، لسبب ما، عامل واحد كالمخزن أو هيئة العلماء أو ظاهرة السيبة أو أثر مؤسّسة الزوايا، لاكتست الوطنية في المغرب طابعاً غير الذي جرّبناه.

ما أستخلصته أنا من دراسة جذورها الاجتماعية والثقافية هو أن الوطنية المغربية مرتبطة

أولاً بالمخزن - الدولة التقليدية - ،

ثانياً بشريحة اجتماعية هى طبقة العلماء الموالين للمخزن - دون سواهم - ،

ثالثاً بقوالب تعبيرية، بألفاظ ومفاهيم هي رأسمال خاصّ بتلك الطبقة العالمة المخزنية، لغة مكوّنة من روافد شتّى أهمّها الرافد الأندلسي.

لهذه التحديدات عواقب مهمّة بالنسبة للماضي وللمستقبل: الوطنية المغربية كانت «ممهّدة» قبل الحماية ولم تتأثر بهذه إلا

في جوانبها الهامشية. فكان من الطبيعي أن لا تختفي بتحقيق هدفها، أي انتهاء إدارة الحماية.

كما أنها لم تكن عفوية، لكي تتبلور في أذهان الأفراد كان لا بدّ من أن تسبقها تربية معينة، وهذه التربية ما كان لها أن تمسّ في نفس الوقت مجموع سكّان البلاد.

كان من المفروض سلفاً أن تتحوّل الوطنية من حركة إلى حزب، وهذا ما حصل سنتين بعد الاستقلال.

73 - هل من مزيد عن العلاقة بين الوطنية والمقاومة؟

- كل حادث تاريخي قابل للتأويل.

هذا ما فعله الوطنيون بالمقاومة المسلّحة السابقة على عهدهم أو المزامنة له.

الأقرب إلى فهم المؤرّخ هو أن الوطنية والمقاومة حركتان مختلفتان، لا بالنظر إلى الوسيلة وحسب - الحرب أو السياسة - بل بالنظر إلى المغزى والهدف.

المقاومة المسلّحة المرتبطة حقّاً بالوطنية هي الموالية لهذه، تلك التي اندلعت سنة 1954. أما المقاومة السابقة فإنها تنتمي إلى مجال نظري مغاير تماماً لمجال الوطنية العصرية، كما أنّها بعيدة، ولو بمسافة أقلّ، عن الجهاد ضدّ البرتغال والإسبان.

المقاوم في جبال الريف أو في الأطلس أو في واحات

الجنوب يقاوم ليس إلا. يدفع بقوة السلاح كلّ من يتخطّى عتبة حماه، أياً كانت الراية التي يحارب من أجلها، راية الإسلام أو السلطان أو الزاوية أو القبيلة.

العبارات التي يتناقلها كتّاب الاستعمار والتي تدّعي أنها تصف بأمانة حقيقة تلك المقاومة مثل

بارود الشرف،

حفل الأمان،

لا استسلام الا بعد إطلاق النار،

كل قبيلة حاربت على أرضها لا غير، إلخ..

لا تفهم إلا في هذا الإطار وتعود ملتبسة خارجه.

74 - لماذا فشلت؟

- هذا حكم بعدي.

هل كان الهدف المرسوم بوعي هو طرد الجيش المهاجم؟ كانت هذه غاية ثورة 1908، إذ كان قوّادها يطالبون السلطان عبد العزيز بمواصلة الكفاح ضدّ العدو ورفض شروطه.

عندما قضي الأمر واستقرّ العدو في المدن، بمباركة السلطان، عاد الهدف، هدف كل قائد مقاوم، وهو زعيم محلي بالضرورة، يهمّ بالأساس مستقبل القيادة. حفل الأمان هو صورة مصغّرة لحفل البيعة، الدخول في ما دخل فيه الناس، مقابل ترك الأوضاع على حالها.

هل فشل الكلاوي عندما بايع عبد الحفيظ أو عندما ساند ليوطي؟

يرجع الالتباس إلى سوء التسمية. لفظ تهدئة pacification غير موفّق، وكذلك لفظ مقاومة résistance.

75 - هل كان لمسألة الخلافة صدى في المغرب؟

- مسألة الخلافة لها أصل وفروع.

كان كتّاب المخزن يتذكّرون النزاع الذي نشأ بين سلطان المغرب المولى إسماعيل العلوي ونظيره العثماني حول من الأحقّ بالخلافة، شريف عربي أم أعجمي عامّي وإن كانت له شوكة؟

وجدّد الاهتمام بالمسألة استفتاء المارشال ليوطي علماء المغرب بداية الحرب العالمية الأولى حول دعوة حاكم الأستانة إلى الجهاد، هل هو واجب على كل مسلم أينما كان أم لا؟ احتجّ المستفتون بهذه السابقة في ردّهم دعوة السلطان العثماني إذ لا تجتمع فيه شروط الإمامة.

لكن هذه الدعوة لقيت ترحيباً في منطقة الريف بسبب مساعدة السلطات الإسبانية هناك لمبعوثين عثمانيين، منهم أحد حفدة الأمير عبد القادر الجزائري يدعى عبد الملك وكان ضابطاً في الجيش.

ثم تزايد تعاطف المغاربة مع الأتراك وهم يتابعون أطوار

حرب مصطفى كمال ضد اليونان وحلفائهم الإنجليز. كانوا يهلّلون لانتصاراته التي أنقذت القسطنطينية للإسلام بعد أن كادت تسقط في أيدي الروس أو تدوّل. ما خفّف إعجابهم به إلا عندما ألغى منصب الخلافة وتراجع عن تطبيق أحكام الشريعة واستبدل الحرف العربي باللّاتيني.

لولا اهتمام النخبة المخزنية بما كان يجري آنذاك في تركيا لما تودّد ليوطي للزّعيم التركي كما تشهد لذلك كتابات الصحفية الشهيرة برت جورج-غوليس.

بالطبع كان الاهتمام محصوراً في المدن كطنجة وتطوان والرباط وسلا. لكنّه تجاوز أعضاء المخزن ومسّ طبقة جديدة، تلك التي كانت تعمل على نشر أفكار إصلاحية سلفية والتي سيكون لها دور ملحوظ في تداول أخبار حرب الريف وفي حملة «اللطيف» ضد الظهير البربري.

76 - لكنّ المغاربة استجابوا بكثرة لدعوة التجنيد في صفوف الجيش الفرنسي؟

- فعلوا ذلك بمباركة السلطان. كما سبق لهم أن تجنّدوا في منطقة الشاوية خلال السنوات 1908 و 1910 بهدف رفع الحصار عن السلطان عبد الحفيظ، حسب ادّعاء قائد الجيش الفرنسي.

لا ننسى أن المغاربة ألفوا منذ إصلاحات الحسن الأول

الخدمة تحت قيادة ضباط أوروبيين، بل كانوا يعتبرون الانتقال من الجيش التقليدى إلى «العسكر» النظامي ترقية.

يتكلم البعض عن «طمع» المغاربة قائلين إنه أكبر عيب فيهم. لكن إذا تذكّر المرء الوضع الاقتصادي البئيس آنذاك، وتدنّي قيمة الموزونة والدرهم، أدرك أن العسكري الذي يتقاضى بانتظام راتباً شهرياً يعتبر من المحظوظين.

77 - ما علاقة حرب الريف بالحركة الوطنية؟

- أذكر على هامش هذا السؤال أن بعض المسائل، ربّما لسبب وقعها الوجداني، تزداد تعقيداً وغموضاً كلّما تواصل البحث والتنقيب فيها. بل مصلحة بعض الدارسين هي أن يزيدوها غموضاً حتّى يسهل عليهم إيصال رسائل بعيدة جدّاً عن الموضوع.

مصلحة بعض الكتاب، الاشتراكيين بخاصّة، أن تكون الوطنية من وحي أوروبا لقناعتهم أن الفكرة لا تخطر على بال مسلم. ومصلحة البعض الآخر أن يكون الباعث وطنياً صرفاً، فلا يجدون لذلك دليلاً أوضح من حرب الريف. فينصّبون محمد بن عبد الكريم زعيماً وطنياً انطلق من جبال الريف، معقل الأحرار منذ القديم، موجّهاً نداءً مدوّياً إلى جميع المغاربة، وعلى رأسهم السلطان يوسف، أن يلتفّوا حوله ويتحرّروا من ربق الفرنسيين والإسبان معاً، بمساندة العرب

والمسلمين والقوى الثورية المناوئة للاستعمار. أو بعبارة أوجز ان إبن عبد الكريم جاء مبشراً، وربما قبل الأوان، بما سيمثله هو.شي.مين أو تشي غيفارا..

لكلّ فرد الحقّ في تأويل أحداث التاريخ على هواه وهذا هو بالتحديد دور الأدلوجة. ولا أنفي أن يتضمّن الواقع التاريخي معطيات تزكّي هذا التأويل أو ذاك. لكنّي مثل سائر الناس أملك أيضاً حقّ التأويل.

تأويلي مختلف. لم أبادر به بل خلصت إليه، بعد بحث طويل وشاقّ، لأنه الوحيد في نظري الذي يجعلني أضع باطمئنان كلّ الحوادث، السابقة واللاحقة، في سياق سوي مفيد.

النتيجة التي توصّلت إليها كمؤرّخ، نتيجة لا تلزم غير المؤرّخ، هي أن ميزة أو خاصّية الوطنية المغربية في أهمّ فتراتها هي أنها إفراز للمخزن أي الدولة المغربية العتيقة، بدون أن يمثل المغرب بأي شكل استثناءً. إذ نجد ما يشبه حاله في إيران، في اليابان، في أثيوبيا، إلخ.

قد يتأسّف البعض على كون هذا النوع من الوطنية احتلّ المكان مسبقاً مانعاً ظهور وطنية من نوع آخر. بل قد يذهب فريق ثانٍ إلى القول إن هذه الوطنية التي نشأت في الظروف المذكورة يجب تجاوزها إلى ما سواها، أكثر ملاءمة لروح العصر. لكن هذا التطلّع - وهو ما يرمز إليه تمجيد ابن عبد الكريم - لا يغيّر شيئاً من الواقع الذي كان.

لا أدّعي أن الوطنية المغربية كانت مخزنية طوعاً واختياراً.

بالعكس أقول إنه لم يكن ممكناً في الظروف القائمة آنذاك أن تظهر وطنية ذات مواصفات مغايرة.

وهذه، رغم يأس وربّما خيانة بعض الأفراد، لم تختف مع إبرام عقد الحماية. اكتست مظهراً آخر. تظاهرت بموالاة ليوطي الذي عرف كيف يستميلها. أنعشت الدعوة السلفية، وجّهت فتوى العلماء الذين استشيروا في قضية الخلافة، اقتنعت أن فرنسا تراجعت عن وعودها بعد عزل ليوطي من منصبه، وقفت موقفاً مبهماً من حرب الريف. هلّلت لانتصارات ابن عبد الكريم الأولى لأنها رأت فيها إهانة للإسبان، العدو التاريخي، وإضعافاً للقوة العسكرية الفرنسية، دون أن تؤمن أبداً بإمكانية فوزه ولا حتى أن تتمنّاه.

موجز القول أن حوادث الريف لم تؤسّس للوطنية المغربية، كما أعرّفها أنا، ولكن هذه، وهي سابقة عليها، وظّفتها، بعد أن انتهت، لتقوية ذاتها في مواجهة دعاة الحماية.

مهما تكن الأهداف الحقيقية، وهي لا تزال ملتبسة إلى اليوم، التي توخّاها محاربو الريف، فإن مغزى الأحداث غذّى بالضرورة ذلك التيار الذي كان أعرق وأعمق.

78 - هل كان وارداً حقّاً أن ينتصر ابن عبد الكريم؟

- كان وارداً جدّاً أن تطول الحرب، أن يكسب ابن عبد الكريم معارك جديدة داخل وخارج منطقة الريف. الظاهر أن

المسألة حسمت من الداخل وليس بضربة قاضية من الخارج. وهذا يطرح من جديد قضية الأهداف.

هل كان ابن عبد الكريم يروم إقامة إمارة تحكم ذاتها بذاتها في الريف؟

هل كان هدفه تحرير مجموع أرض المغرب من السيطرة الأجنبية؟

هل كان الهدف إعادة النظر في بعض بنود عقد الحماية؟ كلّ واحد من هذه الأهداف يتعارض إما مع الوضع الدولي وإما مع مصلحة أحد الأطراف.

فى نهاية التحليل يبدو السؤال لاغياً.

79 - وماذا عن تخاذل الزوايا؟

- قيل إن ابن عبد الكريم كان سلفيّ النزعة، وبالتالي عدواً للزوايا، على اعتبار أنه قضى بعض الوقت طالباً في فاس. لست متيقّناً أن هذا التأويل ليس خاصّاً بأصحاب مجلّة المنار.

أرى من وراء معارضة الزوايا لحركة زعيم الريف تنافساً بين زعامات القبائل. ولهذا الأمر أثر واضح على تماسك الجبهة الداخلية التي بدأت تتصدّع مع بوادر التراجع؛ ممّا أوحى للفرنسيين بضرب معقل الثورة وإنهاء الحرب بسرعة.

لكن حتّى في حالة انقياد شيوخ الزوايا وصمود الجبهة الداخلية وانهيار التحالف الفرنسي-الإسباني واستمرار تخبّط الساسة الفرنسيين، رغم كل هذا لا يمكن تصوّر حلّ مُرضٍ وقارّ في الظروف القائمة آنذاك.

80 - هل فرضت حرب الريف الاختيار بين ريف مستقلّ ومغرب موّحد تحت الحماية؟

- التقسيم، أكان قصير أم طويل الأمد، مرفوض من الجميع.

إلاّ أن الاختيار على هذا الشكل لم يكن مطروحاً في أي وقت. كان المغاربة يهلّلون لانتصارات مقاتلي الريف نكاية في العدو المحتلّ. وبالمناسبة يجب التذكير أن بعض الأوساط الفرنسية كانت أيضاً، في البداية على الأقلّ، تبتهج لتراجع الإسبان وتستعدّ للاستفادة منه. لو دخل مقاتلو الريف فاس لحصل في هذه المدينة ما حصل في مراكش بعد أن اقتحمها جند أحمد الهيبة.

من يؤوّل حرب الريف على غرار حرب فيتنام يتجاهل كلّياً الوضع الذي كان قائماً في باقي مستعمرات فرنسا والصعوبات التي كانت تواجه حكومة باريس في أوروبا. هذا الوضع لم يكن يسمح بأي تماطل أو تسويف في مسألة حلّ الأزمة. من هنا اللّجوء إلى خبرة المارشال فيليب بيتان. لو كان الوضع أقلّ

تأزّماً، وتركت باريس حرية التصرّف لليوطي الذي لم يكن يريد تحالفاً تامّاً وقارّاً مع الإسبان، أقصى ما يمكن تصوّره هو أن يفاوض ليوطي الزعيم الريفي، المنتصر في الميدان افتراضاً، باسم السلطان والإسبان معاً، على أساس أن يضع السلاح مقابل تنصيبه خليفة في تطوان. حلّ توافقي قد يقبله على مضض وتحت ضغط قوي كلّ من سلطان المغرب وحكومة مدريد، على اعتبار أن عزل الخليفة الجديد أمر وارد.

81 - ماذا كان الهدف من استقدامه سنة 1947؟

- الضغط على السلطان وعلى الوطنيين ليدخلوا في مفاوضات جدّية حول إصلاحات تسمح بمشاركة الجالية الأوروبية في تدبير شؤون البلديات. لا أظن أنّ السبب كان، كما قيل، الوفاء بوعد سابق أو الإعداد لدور سياسي بارز.

برهنت المبادرة على تخبّط كبير. خطّط لها في سرية تامة عدد قليل من الموظفين في الرباط، بمعرفة جماعة أقلّ من الساسة الباريسيين، في حين عارضها بقوة ومنذ الشروع في تنفيذها كلّ من كانت له دراية بشؤون الريف ورجاله، وحتى من شارك في المفاوضات السرّية التي أدّت إلى استسلام ابن عبد الكريم سنة 1927.

لكي نفهم المبادرة الفرنسية يجب ألّا ننسى أن الزعيم الريفي، طيلة مقامه في المنفى، عبّر دائماً عن ولائه للدولة

الفرنسية، ولها وحدها، قبل أن يغيّر اللهجة عند حلوله بالأراضي المصرية.

82 - هل كان عليه أن يعود إلى المغرب بعد الاستقلال؟

- ليفعل ماذا؟

نعرف أن عودة المنفيين، حتى العظماء منهم، تؤدي دائماً إلى خيبة مرّة.

بعد أن تطفأ شموع الترحيب، إما يؤسّس العائد من منفاه حركة يريدها جامعة فإذا بها تتحول بسرعة إلى فئة قليلة، وإما يكتفي بتحرير بلاغات تحذيرية أو تحفيزية تُقرأ وتُنسى.

إلا إذا ألمّت بالبلاد أزمة عنيفة غير متوقّعة، وهو ما لا يتمنّاه أي وطني صادق، حتى العائد من المنفى.

7

83 - ما حكمك على النشاط السياسي قبل 1930؟

- الصعوبة في هذه النقطة بالذات هي ندرة الوثائق المكتوبة إذ تطغى على المجتمع الأمّية.

بيد أن الأمّية لا تعني بالضرورة اللاّوعي.

نبحث عن آثار حرب الريف في فاس ولا نبحث عنها في تطوان مع أن هذه المدينة أقرب إلى موطن الأحداث. نبحث عن صدى مسألة الخلافة في أوساط الرباط ولا نلتفت إلى طنجة مع أن هذه أكثر انفتاحاً على ما كان يجري في الدنيا.

إذا حكمنا حسب «المسجل» فقط وجدنا الحركة الثقافية والسياسية في غاية الضعف. لا بدّ إذاً من الاستظهار بغير المكتوب الذي يعطي لهذا الأخير معناه الحقيقي. عندئذ نلاحظ من جهة انتشار الدعوة السلفية، التي كانت إصلاحية من بعض جوانبها، ومن جهة ثانية اتّساع الفجوة، زيادة عدم الثقة، بين أعضاء المخزن ومسؤولي إدارة الحماية.

أعضاء المخزن، أسَكنوا العاصمة أم الأقاليم، كانوا في

معظمهم ملاّكين كسّابين. مسّتهم بالضرورة، من قريب أو بعيد، سياسة الاستيطان الفلاحي. ظهر عندها انشطار داخل الهيئة المخزنية يؤول عادة كتنافس طبيعي بين أسر الأعيان، بين مخزن عبد العزيز ومخزن عبد الحفيظ، مكتسياً زيّاً جديداً.

الصحيح هو أن مخزن الحماية كان يصلى بنارين. من جهة كان يشعر بأزمة نفسية نتيجة الاتّهامات التي يكيلها له باستمرار الزعماء الوطنيون ومن جهة ثانية، مع انتهاء سياسة التوقير التي سار عليها ليوطي، أصبح معرّضاً لكل أنواع النقد والازدراء من طرف عدد متزايد من المستوطنين الأوروبيين، الذين كانوا لا ينفكّون يتّهمونه بالطمع والرشوة والكسل والتقاعس. يقولون جهراً وفي كل مناسبة: ما الفائدة من الاحتفاظ بهذا الشبح؟ لماذا لا نستغني عنه نهائياً؟

84 - هل كان المغرب آنذاك تحت تأثير غربي أم شرقي؟

- هذا سؤال لاحق، بل متخلّف عن سير الأحداث. أعني بهذه الملاحظة أن من يطرحه يبحث عن أسباب للوقائع خارج سياقها.

بعد سنة 1930، عندما تسارعت الأحداث في اتّجاه لم يكن متوقّعاً، راح المسؤولون الفرنسيون يتأسّفون: أين ذاك المغربي السادج الودود، الطيّب الوديع، الصبور الوفي؟ تغيّر فجأة، فلا يمكن أن يحدث ذلك إلا بتأثير خارجي. لو ظلّ

الإنسان المغربي على الصورة التي رسمها وتشبّث بها أنصار ليوطي لما تكلّم أحد عن تأثير خارجي، غربي أو شرقي.

في هذا الباب لا بدّ من التمييز بين التأثير في العامّة أو في المخزن أو في الشباب، سيما الطلبة الموجودين في باريس، والذين بدأوا ينشطون هناك بعد 1930.

هؤلاء كانوا باتصال في نفس الوقت مع بعض الساسة الفرنسيين ومع زملائهم من تونس والجزائر وكذلك من بلاد الشام. لا ننسى أن سوريا ولبنان كانا تحت الوصاية الفرنسية، ونظام الوصاية قريب نظرياً من نظام الحماية المطبّق في تونس والمغرب. الطالب المغربي الذي كان يقرأ في الجرائد أنباء حرب الريف يجد في نفس الصفحة أخباراً مماثلة عن ثورة جبل الدروز.

بإيجاز يمكن القول إن التأثير الشامي كان أوضح في الطلبة المهاجرين، والتأثير المصرى - وهو إلى حدّ ما شامي أيضاً عن طريق مجلّة المنار- في الأوساط السلفية.

لكن هذا التأثير كان نتيجة، طردية أو عكسية، لواقع قائم، أعني تبعية المغرب للسياسة الأوروبية. ما يسمّيه الفرنسيون تأثيراً شرقياً كان يمرّ عن طريق الوسائل الأوروبية. مجلّة شكيب أرسلان (*La nation arabe*) الأمّة العربية كانت تصدر بالفرنسية في سويسرا وتنقل كثيراً ممّا تنشره المنار القاهرية.

في مسألة التأثير هذه التباس كبير، توضيحه يطول.

85 - نعود إلى مغزى مقاومة تطبيق ظهير ماي 1930.

- طيب.

المغزى التاريخي هو القطيعة مع الأعيان. ما لم ينتبه إليه المسؤولون والملاحظون هو انعدام أية معارضة لمظاهرات 1930.

أين كان الكلاوي وأقرانه؟

لماذا لم يهبّوا للدّفاع عن الأعراف والتقاليد كما سيدّعون ذلك بعد عشرين سنة؟

لماذا لم ينظّموا مسيرات مضادّة في القرى والمداشير انتصاراً لأحكام «الجماعة»، لو كانت هذه لا تزال حيّة نشيطة كما يقول أنصارها؟

ما حدث سنة 1930 يشير في الحقيقة إلى سوء تقدير من الجانبين، أقطاب الحماية وأعضاء المخزن. ظنّ الأعيان أن مصالحهم مضمونة إلى الأبد فيما اعتقد الفرنسيون أن المخزن جهاز يحتضر. هدف الاستعمار هو التوسّع والاستغلال، لا مساندة من يريد الإصلاح كما ظنّ الأعيان، والمخزن لم يكن «خضرة فوق طعام»، وجوده غير نافع وغيابه غير مضرّ، كما ظنّ ذلك دعاة الحماية. علّمت التجربة كلا الفريقين أنه كان مخطئاً.

86 - ما وجه تفوّق الشرع على العرف؟

- الشرع قواعد وأحكام.

والأحكام هي بمثابة عُرف في بقعة أرضية محدّدة. لولا ذلك لما تأسّست مذاهب فقهية متميّزة ولما جمعت فتاوى خاصّة بهذا الصقع أو ذاك، بهذا الموضوع أو ذاك.

لا يوجد إذاً نظرياً تعارض بين الشرع والعرف. لكن في حال منطقة معيّنة كالمغرب، وفي ظرف معيّن، أعني وضع الحماية، السؤال المفيد هو: ما وجه تفوّق حكم القاضي على فصال «الجماعة»؟

ما قيل عن جمود الشرع وليونة العرف، استهتار القاضي وحصافة الجماعة، ارتشاء القاضي ونزاهة الجماعة، إلخ.. كان مجرّد تمويه، إذ المقصد الأساس للمستوطنين كان تسهيل إجراءات تفويت الملكية العقارية والتنقيب على المعادن في أراضي الجماعة.

جلّ ما كتب في هذا الباب مغشوش.

87 - هل كان المخزن يستطيع فرض تطبيق الشرع على القبائل؟

- لم يستهدف ذلك أحد من سلاطين المغرب.

التمييز بين أحكام الشرع وضوابط السياسة أمر متّفق عليه

عند فقهاء المالكية. المصالحة، التراضي، الفصال، تأليف القلوب وتطييب الخواطر في إطار الجماعة (برلمان القبيلة)، هذا كان بالضبط ما تعنيه كلمة سياسة في القاموس التقليدي. والقاضي، إن حكم على أساس العرف في مكان معيّن، لا يردّ عملياً حكمه أبداً، حتى وإن أفتى بعكسه بعض فقهاء المدن.

ما يرفضه الجميع هو أن تدوّن تلك الأحكام العرفية وتردّ إلى ضوابط وأصول تنافي صراحة مبادئ الشرع، أعني القواعد العامة التي لا ينازع فيها أحد.

وهذا هو بالضبط ما كان يتطلّع إليه منظّرو الحماية. كانوا يجتهدون لتدوين «فقه الجماعة» بدون التفات إلى قواعد الشرع. انتبه إلى هذا الأمر المساعدون المغاربة في المقيمية العامة وأخبروا أقاربهم في المخزن.

عند التعرض لهذه النقطة لا أحد أبداً يلتفت إلى الوضع في المنطقة الخليفية أو في منطقة طنجة الدولية، ويتساءل: لماذا طرحت المسألة في المنطقة السلطانية فقط؟

88 - وماذا عن الصدى الواسع للاحتجاجات على ظهير 1930؟

- أظنّ أن المسؤولين الفرنسيين أدّوا ثمن غرورهم. خدعهم الهدوء الذي كان يعيش فيه المغرب، ظاهرياً على

الأقلّ، فاعتقدوا أنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون دون أن يلجأوا إلى سياسة المراحل.

من البدء جعلوا من قضية العرف آلة حرب ضدّ الشرع وضدّ الإسلام. نسوا أن فرنسا تحكم مناطق كثيرة يعمّرها مسلمون، وأن كلّ مبادرة غير مدروسة في إحداها تؤثّر لا محالة سلباً في الباقي.

أكثر من ذلك أغفلوا أن الدول الاستعمارية الأخرى تواجه نفس الوضع، فلا تودّ بحال أن تترك الانطباع أنّها تبارك المبادرة الفرنسية.

الحاصل هو أن إدارة الحماية في المغرب ارتكبت كلّ الأخطاء الممكن تصوّرها، فأدّت هفوة بسيطة إلى ضجّة دولية.

استغلّ هذه الحادثة شكيب أرسلان الذي كان باتّصال مع الطلبة المغاربة القاطنين باريس. كان ينتمي إلى أقلّية لها عُرف متميّز هي الطائفة الدرزية، فأدرك في الحين خطورة المسألة. اقتدى به شوامّ آخرون من محرّري مجلّة المنار التي كان لها آنذاك تأثير قوي في الجزر التي تُعرف اليوم بماليزيا وإندونيسيا. ثم تزامنت هذه الأزمة مع أزمات أخرى في فلسطين وفي الهند.

رغم كل هذا أكرّر أن المغزى الحقيقي هو ما أومأت إليه سابقاً، أي انزعاج النخبة المخزنية وابتعادها عن سلطات الحماية.

89 - وماذا عن تخليد عيد العرش؟

أرى في هذا الحادث أكبر دليل على ما أقول.

السلطان في العرف الاستعماري محمي بالتعريف. أذكر بهذه المناسبة أن الحسن الأول رفض التوقيع على معاهدة مع الحكومة الإنجليزية تتضمّن نوعاً من الحماية سنة 1890 لأن السفير الذي قدّمها سبق له أن أمضى اتّفاقية مماثلة مع سلطان زنجبار وكان مقتنعاً أن ما تمّ في تلك الجزيرة المنعزلة في المحيط الهندي ينجح كذلك في المغرب.

كان لإبدال لفظ سلطان بلفظ ملك وقع سيّئ بل استفزازي في نفس الفرنسيين، إذ كان ينذر أن أعضاء المخزن الخاضع ظاهرياً لا يعتقدون أن نظام الحماية سيدوم.

لو كان في الأمر مجرّد تقليد شكلي لما يجري في الشرق، في العراق والأردن قبل أن يجري كذلك في مصر، لما ارتاب له الفرنسيون، سيما أعضاء الجالية القاطنة في المدن، إذ أدركت مغزاه عندما رأت ما يقع أثناء الحفلات من فرحة وتآخ وتلاحم.

جسّد إحياء ذكرى عيد العرش رسمياً، وفي كلّ المناطق، وحدة المغرب والمغاربة، الوحدة الترابية أولاً والاجتماعية ثانياً.. ملك المغرب ملك في الرباط وفي تطوان وفي طنجة. ملك المغرب هو ملك المسلمين واليهود، ملك النّاطقين بالعربية وبالأمازيغية، وملك هؤلاء حصراً.

من لم يعترف بسلطانه ليس، ولا يمكن أبداً أن يكون،

مواطناً مغربياً، مهما طال مكوثه في البلد ومهما جدّ واجتهد وساهم في نمو وازدهار المملكة.

كيف يصحّ معارضة هذا التوجّه وهو مقرر في ديباجة عقد الجزيرة الخضراء وعقد الحماية؟

90 - هل كان مناسبة للتصالح مع الوطنيين؟

- كان نتيجة توافق حتمي، هذا واضح من التحليلات السابقة.

كشفت أزمة الظهير البربري عن حقيقة الوضع، أي أن سياسة ليوطي، سياسة احترام المؤسّسات التقليدية، كانت خطّة مرحلية لا غير.

كان الردّ هو التذكير بأن المخزن لا يزال يمثّل قوة يستحيل تجاهلها. رمز المخزن هو الملك وهذا يعلن كلّ سنة بخطابه وسلوكه، أثناء استقباله لضيوفه المهنئين، أن نظام الحماية هو الذي يمثل في تاريخ المغرب مرحلة عابرة وأن مآله، شرعاً وعرفاً، الزوال.

إن كلمة تصالح تعبّر عن منظور الفرنسيين.

من منظور المغاربة يعني تخليد عيد العرش سنوياً إعادة تقييم وضع الحماية، الوقوف على حقيقتها، أبعادها وأهدافها.

لو لم يكن الأمر كذلك، ما هو إذاً أصل الحركة السلفية؟ ما هي أسباب معارضة الظهير البربري؟ لماذا في كل مناسبة

ترديد النداء يحيى الملك؟ الواقع هو أن السلفيين والمعارضين للظهير والمنادين بحياة الملك ينتمون جميعاً إلى نفس الطبقة الاجتماعية.

وإن انتقدوا المخزن المحمي فباسم مخزن غير محمي.

91 - وعن آثار الأزمة الاقتصادية العالمية؟

- جاءت متأخّرة بالنسبة لمناطق أخرى، لكن بوادرها ظهرت أواخر 1931.

قلّ الإقبال على المنتوجات المغربية، سيما أن فرنسا، عكس الولايات المتحدة مثلاً، اتّبعت سياسة تقشّفية. قرّرت تخفيض كلّ النفقات العمومية. الأمر الذي دعا إلى التعجيل بإنهاء العمليات العسكرية في جنوب المغرب وتحديد أجل أقصى لذلك.

الإعلان عن نهاية السيبة، بقدر ما كان يعني، بالنسبة للفرنسيين، انتصار جيشهم وتحريره من هذا العبء ليتفرّغ لما هو أهمّ، كان يعني، بالنسبة للمغاربة، أن مهمّة الحماية، بسط سلطة المخزن على مجموع تراب المملكة، قد انتهت، فوجب إعادة النظر في هدفها الأبعد.

وإلّا فذلك يعني أن الحماية تحوّلت إلى احتلال دائم، أي إلى استعمار. ليس من قبيل المصادفة أن تتزامن نهاية العمليات العسكرية مع تقديم دفتر المطالب المغربية.

من جهة أخرى نتج عن سياسة التقشّف المتّبعة في فرنسا تقلّص الاستثمار الفرنسي في المغرب.

تناقصت فرص الشغل بالنسبة للمغاربة وغيرهم كما تضرّر المعمّرون من انخفاض مستوى المساعدات والتعويضات.

فتعالت أصوات الاحتجاج داخل الجالية الأوروبية بكل شرائحها، من موظّفين وتجّار ومعمّرين فلاحيين. الجميع ناقم على المسؤولين، في باريس وفي الرباط، وكثرت الاقتراحات المتناقضة، كلّ فئة لا تفكّر إلا في مصلحتها الخاصّة.

في هذا الجو وجّهت إدارة الحماية اهتمامها إلى هؤلاء الأوروبيين الناقمين وأهملت المغاربة. مصلحة شؤون الأهالي التي كانت تحتلّ الصدارة أيام ليوطي همّشت كلّياً ولم يعد ينظر إلى الفرد المغربي إلا كمشاغب. اختفت السيبة في الأطراف لتعود وتسكن قلب المدن مطوّقة الأحياء الأوروبية.

ثم كانت توجد مشكلة خاصّة بالمغرب وهي وضعيته الدولية المحدّدة باتفاقيتي 1906 و1912.

لم تكن إدارة الحماية حرة التصرّف في المجال التجاري. كانت السوق المغربية في المناطق الثلاث مفتوحة لتنافس الجميع. فتهافت عليها المصدّرون من كلّ الجهات. في هذا الوضع انتشرت عبارة «سلعة الجابون» لأن هذا البلد أغرق المغرب بمنتجاته الرخيصة، كما تفعل اليوم الصين ودول آسيوية أخرى، ولم تستطع الإدارة الفرنسية اتّخاذ أي إجراء وقائي لحماية الإنتاج المحلّي، أكان بيد المغاربة أو الأوروبيين.

بالطبع تضرّر الصّناع والتجّار المغاربة أكثر من الأوروبيين، لكن هؤلاء كانوا يحتجّون بصوت مسموع. فطرحوا بإلحاح ضرورة مراجعة اتّفاقية الجزيرة الخضراء.

وهنا برز التناقض.

إن كانت المصالح الاقتصادية مشتركة بين الأهالي والمستوطنين، كانت الأهداف السياسية متعارضة، إذ كان المغاربة يرون في تلك الاتّفاقية بالذات ضمان سيادتهم على أرضهم. تغيير بنود معاهدة 1906 يعني في نظرهم اعتداء على سيادة السلطان.

كشفت الأزمة الاقتصادية التي عرفت أوجها في المغرب سنة 1936 وسنة 1937 - حيث عمّ الجفاف وانتشرت المجاعة والأوبئة واضطرّ ثلث ساكنة الجنوب النزوح إلى الشمال - عن مشكلين لم تستطع فرنسا التغلّب عليهما. تمثل المشكل الأول في كون المقيم العام لا يستطيع في آن تدبير شؤون الجالية الأوروبية المتنامية والإصغاء لمطالب الأهالي. وتمثل الثاني في كون حكومة باريس لا تستطيع أن تتصرّف بحرية في محميتها لمواجهة الطوارئ .

موجز القول، في شأن الأزمة الاقتصادية العالمية، هو أن آثارها البعيدة كانت أعمق من القريبة التي يتوقّف عندها طويلاً الباحثون، وآثارها السياسية أقوى من الاجتماعية.

92 - وعن محتوى دفتر المطالب المغربية؟

- عندما كنّا طلبة في باريس كنّا نستقبل من حين لآخر أحد زعماء الحركة الوطنية، أغلبهم من حزب الاستقلال. كانوا بلا استثناء يفتتحون حديثهم بالجملة التالية: لمّا قدّمنا دفتر المطالب. فكان يراهن بعضنا البعض: متى ينطق المحاضر بالعبارة السحرية، في الجملة الأولى؟ الثانية؟ أم الثالثة؟

كثر الكلام عن دور اليساريين الفرنسيين في تحرير هذا الدفتر. الدور واضح، لا سبيل إلى إنكاره ، لكنّه راجع إلى الوضع القائم آنذاك في فرنسا وفي المغرب .

منذ عشرين سنة نشأ على أرض المغرب مجتمع أوروبي متكامل ومتميّز، يزداد متانة والتحاماً يوماً بعد يوم. له مصالح ومطالب واضحة يعبّر عنها عبر القنوات المعتادة لديه في بلده الأصلي.

للمعمّرين، للمستثمرين، للموظّفين، للعمّال، للتجّار هيئات منتخبة ترفع باستمرار ملتمسات تتضمّن مجموعة من «المطالب» المحدّدة، تقدّمها لرؤساء المصالح المركزية في الرباط. بعد حين أصبح هؤلاء الموظّفون يتصرّفون كما لو كانوا يعيشون في مدن فرنسية مثل تور أو ليموج، لا يكادون يرون حولهم سوى هؤلاء المتظلّمين الملحاحين، وإن خطر على بالهم وجود الأهالي قرّروا في الحين أن أمرهم موكل إلى رجال الأمن.

بدأ هذا الوضع يقلق بعض الأوروبيين المتنوّرين في فرنسا، ممّن لهم اطّلاع على الأوضاع الدولية والذين استخلصوا العبرة من الضجّة التي خلّفها إعلان ظهير ماي 1930. كلّما أبدوا تخوّفهم من مآل السياسة المتّبعة، وحذّروا من مخاطرها، كان يقال لهم: نشكركم على العناية ونشجّعكم على متابعة الاتّصال بهؤلاء الشبّان المغاربة. الظاهر عليهم أنهم مؤدبون متعقّلون ودودون، لكن ماذا يريدون بالضبط؟ هل لهم مطالب محدّدة؟ ولم لا يقدّمونها كتابةً؟

فجاء دفتر المطالب ليسهّل مهمّة أصدقاء المغرب في فرنسا. هذا ما يفسّر الأسلوب والمضمون.

وبما أن إدارة الحماية في الرباط عادت لا تهتم إلا بمعالجة مشكلات المستوطنين الأوروبيين، خاطب دفتر المطالب، وبعده دفتر المطالب المستعجلة، السلطة المركزية في باريس، وبالضبط وزارة الخارجية المكلّفة رسمياً بمتابعة مسائل الدول المحمية، طالبة منها أن تتحمّل مسؤوليتها والتخطيط لسلسلة من الإصلاحات الجوهرية، وفرضها فرضاً على الموظّفين في الرباط، حتى يتحقّق قدر من الإنصاف وتتعادل كفّتا الميزان.

لكن، وتماشياً مع التحليلات السابقة، لو أتيحت الفرصة لأعضاء المخزن أن يتجاوزوا استياءهم وحنقهم المكتوم للتعبير عن رغباتهم لما أتوا بغير ما سجّله نشطاء الشبّان، أي العودة إلى التطبيق الحرفي لمفهوم الحماية .

قد تكون العبارات المستعملة لتحرير دفتر المطالب فرنسية

النكهة، والأمر مفهوم، لكن المضمون، باستثناء بعض الجزئيات، يلخّص طموحات النخبة السلفية والجهاز المخزني.

93 - كيف تفهم انقسام الحركة الوطنية وتفوّق علال الفاسي على خصمه؟

- أعتقد أن الانقسام الحقيقي، أو بعبارة أصحّ توزيع الأدوار، كان بين المخزن الصامت والمخزن الناطق، أي الشباب الغاضب، إذ الجميع ينتمي إلى نفس الفئة الاجتماعية وربّما يتوخّى الهدف ذاته.

دفتر المطالب يتماشى مع ميول الجناح المعتدل الذي يومن أن المغرب يحتاج إلى تدريب طويل حتّى يتعلّم كيف يسيّر شؤونه، وذلك بإدخال إصلاحات متدرّجة، شريطة أن يتحلّى القائم بتلك الإصلاحات بالصدق وحُسن النية.

وهذا كان رأي من حبّذ وناصر الحماية الفرنسية.

في هذه المرحلة المتقدمة لم يكن خلاف بين الوطنيين الشبّان والأعضاء المتنوّرين، المغاربة الأقحاح، من المخزن، شريطة أن يتمّ الإصلاح بالتدريج ومع الحفاظ على مصالح الزعماء التقليديين.

لكن بعد تنحية ليوطي اتّضح أن هذه السياسة، حتى إذا قبلتها حكومة باريس، لا تقبلها إدارة الحماية في الرباط ولا تستطيع تطبيقها. أقصى ما يمكن أن تحقق هو اقتسام السلطة

ظاهرياً، اقتسام يؤدي حتماً إلى إبدال سيادة السلطان بسيادة ديمقراطية لا فرق فيها بين المغربي الأصيل والمستوطن الدخيل، المزدوج الجنيسة والولاء، على شاكلة ما جرى في أفريقيا الجنوبية. حصل شرخ داخل هيئة المخزن، الجناح المعتدل، رغم تنكّر إدارة الحماية لوعودها، تشبثّ برأيه وابتعد تدريجياً عن الجناح الآخر، سيما بعد أن طفحت على السطح رواسب معارضة قديمة بين المخزن المركزي من جهة وأرباب الزوايا وشيوخ القبائل من جهة ثانية.

استخلص بعض أعضاء المخزن العبرة من كلّ هذه التطوّرات. أدرك هذا المخزن أن حكومة باريس عاجزة عن التأثير في إدارة الرباط، وأن إدارة الرباط غير مستقلّة عن الجالية الأوروبية. أدرك في النهاية أن الفرنسيين، كالإسبان، لم يضحّوا بالنفس والنفيس، إحساناً وخدمة للإنسانية، حتّى يتوافر للمغرب قاعدة مادّية وبشرية تؤهّله ليكون دولة عصرية موحّدة ومستقلّة يكونون هم فيها دائماً وأبداً ضيوفاً «مكرّمين». هذه كانت تجربة أعضاء ذلك المخزن المتكررة انطلاقاً من سنة 1930.

ومن يقول بتحليل مغاير، لاغياً دور المخزن باعتباره مجرّد دمية في يد إدارة الحماية، يستلهم في الحقيقة تجارب (تونس، مصر، الهند، إلخ) لا علاقة لها بوضع المغرب.

المخزن شبح، لكنّه شبح والد هامليت يسيّر حركات الأحياء.

8

94 - كيف تفسّر تعاقب فترات التأزم والانفراج؟

- الواقع، كما أراه، هو أن الأزمة لم تتّجه أبداً نحو الحلّ منذ أن انعقدت سنة 1927.

تحقّق تقدّم مادّي هائل يصفه بإعجاب الزوّار الأجانب، ورغم ذلك كان الغالب على الجميع، الأوروبيين والمغاربة، اليأس والقنوط. قد يعود الأمر إلى الوضع القائم في أوروبا وفي فرنسا بصفة خاصّة، لكنه يعود أيضاً إلى انسداد الأفق وعجز الجميع عن تصوّر حلّ يرضي كلّ الأطراف. لجأ الجميع إلى التسويف، والهروب إلى التقنوقراطية هو أحد وجوه هذا العجز.

من حين إلى آخر، لسبب طارئ، خارجي أو داخلي، ينفجر الوضع في بعض المدن فتنظّم مظاهرات، مسيرات، اعتصامات، إلخ..

فيعتقل الزعماء لمدّة، ثمّ بمناسبة تغيير حكومي في باريس، بعد حملة صحفية ليست دائماً بريئة، يطلق سراح

السجناء. يهدأ الوضع موقّتاً لينفجر من جديد في نفس الصورة وفي نفس الحدود. حصل ذلك سنة 1930 ثم 1935 ثم 1937 ثم 1943 ثم 1947 ثم 1951 ثم 1953.

عنوان هذا التذبذب، في إطار جمود عام، تعاقب جنرالات ودبلوماسيين على رأس إدارة الحماية في الرباط. يعيّن قائد عسكري فيستبشر المعمّرون ويرتاب المغاربة. ثم يليه موظّف مدني فيفرح المغاربة وينزعج الأوروبيون. لا هذا ولا ذاك يأتي باقتراحات جدّية كفيلة بإنهاء الأزمة.

95 - ما قولك في سياسة الجنرال نوجيس؟

- ولاية المقيم العام شارل نوجيس هي الأطول بعد ولاية ليوطي.

يقال إنه أعاد الدفء إلى العلاقات الفرنسية - المغربية ويدّعي البعض أنه لولا ظروف الحرب (هزيمة فرنسا وتنامي نفوذ أمريكا) لتمكّن من إرساء تلك العلاقات من جديد على قواعد متينة. في هذا القول كثير من التبسيط.

كان الرجل مراوغاً. لم تكن له عقيدة ثابتة ولهذا فقد في النهاية ثقة الجميع، وإن احتفظ على ما قيل بعطف محمد بن يوسف. إن كُتِب لسياسته بعض النجاح فلأن الظروف كانت ملائمة.

لم يكن المغرب على رأس قائمة هموم الحكومة اليسارية

التي أعقبت انتخابات ربيع 1936 وفوز أحزاب الجبهة الشعبية. اصطدمت هذه الحكومة بمشكلات أكثر تعقيداً وإلحاحاً حتى فيما يهمّ المستعمرات. فأنشأت لهذا الغرض لجنة عليا للنظر في الأزمات التي تخصّ المجتمعات الإسلامية والتي تولّى كتابتها المؤرّخ شارل-أندريه جوليان. كان غرضها الأساس تهدئة الأوضاع وكسب الوقت. لذلك وقع اختيار حكومة ليون بلوم على قائد عسكري، له تجربة في الميدان ومعروف بمواهبه الديبلوماسية، كممثّل لها في الرباط. سبق لنوجيس أن شغل أيام ليوطي منصب رئيس إدارة شؤون الأهالي، يعرف إذن كيف يتصرّف معهم، وهو ما قد يرضيهم ولو موقّتاً ويخفّف من تخوّفات المستوطنين.

وبالفعل حاول نوجيس إرضاء كلا الطرفين، أولاً بالإصغاء إلى مطالب الجميع، ثم بإغراقهم بكثرة الوعود وأخيراً بتخويفهم من عواقب استفحال الأزمة الداخلية التي من شأنها أن تغذّي لا محالة أطماع إسبانيا، حليفة ألمانيا، كما تمهّد لغزو أمريكي.

كان الوضع في شمال أفريقيا قد تغيّر منذ نهاية حرب الريف. أقبل عدد كبير من المغاربة على التجنيد في صفوف الجيش الإسباني. كانت إسبانيا اليمينية مدعومة من حكومتي ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية وكانت تملك وسائل ضغط كثيرة على حكومة إنجلترا. فكان من الوارد جدّاً، بعد انتهاء الحرب الأهلية، أن تطالب إسبانيا بضمّ طنجة إليها وتوسيع رقعة المنطقة الخليفية.

هذا خطر عسكري وسياسي. يصاحبه خطر تجاري.

إن كانت إنجلترا قد تنازلت قبيل الحرب عن امتيازاتها في هذا المجال، فإن أمريكا ظلّت تتشبّث بمبدأ الباب المفتوح المقرّر في اتّفاقية 1906. حاولت إدارة الحماية مراراً وبدون جدوى تغيير وجهة نظر الأمريكيين. كان هذا الوضع، في إطار الأزمة الاقتصادية العالمية، يضرّ بمصالح المغاربة والمستوطنين على السواء.

رغم هذه العوارض اتّخذت الإدارة في عهد نوجيس بعض الإجراءات لصالح الأهالي، على رأسهم الصنّاع التقليديين وصغار الفلاّحين.

ثم جاء جفاف 1937، الأسوأ منذ عقود. انتشر على أثره الفقر والجوع والوباء. فأظهر الفرنسيون، سيما المتديّنون، تعاطفاً ملحوظاً مع الضحايا، وظنّ البعض أنهم يعيشون في جو التفاهم والتوادد الذي ميّز عهد ليوطي.

بإيجاز كان نوجيس رجل سياسة ومصالحة أكثر منه رجل حرب ومواجهة. وفي هذا الوصف مدح وقدح. لم يتورّع مثلاً، لكسب ثقة السلطان الشابّ محمّد بن يوسف، من نشر أخبار ملفّقة عن نيّة الوطنيين إقامة نظام جمهوري. لهذا السبب وصفه الأمريكان بالخبيث المحتال وانتقم منه الجنرال دي غول، بعد انتصاره على خصومه، شرّ انتقام.

بالنسبة للمغرب مكّنت سياسة نوجيس هذه المخزن من بسط نفوذه من جديد على مجموع التراب باسم تلك الثقة المستعادة بين السلطان والمقيم العامّ.

من كان يقول من قوّاد القبائل والزوايا: أنا مع فرنسا ما دام المخزن مع فرنسا، أمسى يقول: أنا مع المخزن ما دامت فرنسا مع المخزن. وهذا تطوّر مهم.

96 - كيف تم الانتقال من المطالبة بتعديل الحماية إلى رفع شعار الاستقلال؟

- وراء هذا السؤال يكمن وقع لفظ استقلال.

أمّا إذا عدنا إلى المضمون، فإننا نرى أن الفرق ضئيل جدّاً. صحيح أن دفتر المطالب حرّر بمساعدة فرنسيين تقدّميين في حين أن محرّري وثيقة المطالبة بالاستقلال كانوا مغاربة، أيّاً كانوا ومهما كان دورهم في التسويد والتبييض، المراجعة والتحرير.

صحيح كذلك أن الوضع العامّ قد تغيّر. الدولة الحامية صارت محمية، أولاً من طرف الألمان ثم من طرف الأمريكان. عندما كانت الدولة الحامية مستقلّة حرّة التصرف، أي عندما كان الفصل في شؤون المغرب بيد من يحكم بباريس، كان هذا المسؤول المستقلّ بأمره هو المخاطب. يطلب منه أن يفي بوعده، أن يقوم بالإصلاحات المسجّلة في عقد الحماية، والتي بعد بداية خجولة متردّدة توقّفت نهائياً؛ وأبدل الشعب المغربي بشعب مستورد والدولة المغربية بإدارة مستحدثة وواكب الاهتمام بهذه المجموعة الجديدة إهمال كامل

للمجموعة البشرية الأصلية، تطلّعاً لتفكّكها واندثارها مقابل ذوبان قسم ضئيل منها في البناء الجديد.

دفتر المطالب هو دعوة، يائسة في الحقيقة، إلى إنقاذ كيان يحتضر، لو كان المنادى يسمع ويعقل. لو كان في الإمكان التراجع عن الحاصل لانتعش المخزن، استعاد سلطته وعاش في ظلّ الدولة الحامية على نمط الدومنيون الإنجليزي .

إذا الاستقلال الذاتي، حكم الجماعة بنفسها في نطاق قواعد مقرّرة تضبط العلاقات بين الكيان المحمي والدولة الحامية، هو مضمون دفتر المطالب ودفتر المطالب المستعجلة. لكن عندما تواجدت على أرض المغرب وبجانب السلطة المغربية، سلطتان، إحداهما مسيطرة والأخرى خاضعة لها، إلى أي سلطة توجّه المطالب الممهّدة للاستقلال؟ إحدى السلطتين لا تريد الاستقلال لأنّها تعتقد أنّه مضرّ بمصالحها، والثانية، وهي الأقوى، لا تريد ولا تستطيع القيام بالإصلاحات اللازمة وإن سايرت مبادئها. لم يبق من خيار سوى الإفصاح عما كان مكتوماً، المبادرة بالإعلان مع أن المعلن لا يؤدي سوى معنى المضمر.

في كل الأحوال لا بدّ من مفاوضات، من إجراءات، لا بدّ مرحلياً من تواجد وتساكن نظامين وشعبين، الأهالي من جهة والمستوطنين من جهة. ازدواجية السلطة النافذة هي التي فرضت فضح ما كان بين السطور. لهذا السبب قدّمت الوثيقة المطالبة بالاستقلال إلى الجهات الثلاث: المخزن، الإقامة العامّة الفرنسية، الحلفاء .

ما أفزع الفرنسيين في لفظ استقلال هو أنهم فهموا، في الوضع القائم آنذاك، أنها تعني، ولا يمكن أن تعني، سوى الرحيل أو الطرد.

97 - لماذا لم يكتب الزعماء الوطنيون مذكّرات توضّح كلّ هذه الملابسات؟

- هناك بالطبع مقالات صحفية، محاضرات عمومية، شهادات فردية، لكن لا نجد مذكّرات كما يكتبها الساسة الغربيون وحتى بعض المشارقة. لا شيء شبيه بمذكّرات تشرشل أو دي غول أو غاندي أو نهرو. وحتى كتاب علاّل الفاسي، الفريد من نوعه، لم يؤلّف إلا بإيعاز من مسؤولي الجامعة العربية لمّا اعترفوا أنهم يجهلون كلّ شيء عن أوضاع شمال أفريقيا.

هل يدلّ الأمر على تدنّي المستوى الثقافي في المغرب؟ هل يعني أن الكتابة مكسب متأخّر لدينا لم نتقن بعدُ استعماله؟ هل هناك أسرار فاضحة لا يودّ أحد أن يطّلع عليها الجمهور؟ هل ذلك من أثر «الحشمة» التي هي من توابث تربيتنا أم خشية ادّعاء القوة والاستطاعة؟

مهما يكن الجواب فهذا عطب قديم فينا. تفتح كتاباً يحمل عنوان التعريف بنفسي ظنّاً أنّك ستجيد فيه سيرة ذاتية، فإذا بك أمام سرد لأسماء شيوخ زاوية.

ندرة المذكّرات السياسية عندنا تنمّ في نظري عن تخوّف واحتراز، رعاية لمصلحة الأسرة أو الفصيل.

98 - إلى أي حدّ أثّرت الحرب العالمية الثانية في مسار الحركة الوطنية؟

- روى أبي مرّة أن مراقب المدينة الفرنسي أسرّ إليه قبيل الحرب أن فرنسا ستغامر وستهزم. قرأت فيما بعد عدّة كتب تثبت أنّ فرنسيين كثيرين كانوا يقولون بهذا الرأي، لكن أن يسرّ بذلك مسؤول فرنسي عادي لمواطن مغربي عادي، فهذا أمر لافت للنظر.

يشاع أن المغاربة هبّوا للدفاع عن فرنسا، الوطن-الأم والدولة الحامية، مظهرين بذلك شهامة كبرى. يكثر الكلام عن خطاب لمحمّد بن يوسف وعن رسالة ابن عبد الكريم بعث بها من منفاه يعرض على المسؤولين الفرنسيين تجنيد ابنَيْه وعن رسالة مشابهة للباشا الكلاوي. لكن هناك المعلن وهناك المضمر، هناك الجانب السياسي وهناك الجانب النفساني. المواطن الفرنسي يضع هزيمة بلاده في سياقها، توالي الانتصارات والهزائم منذ قرون، والمغربي يفعل كذلك فيما يتعلّق بوطنه، لكن الفرنسي القاطن في المغرب يعتقد اعتقاداً قوياً أن المغاربة لا يحترمون إلا القوة، وهذا يعني أن حضورهم غصب صريح. هذا قائد عسكري بارز حارب مدّة

أعوام في جبال الأطلس المتوسّط يستخلص من تجربته أن كل قبيلة مغربية لم تستسلم إلاّ بعد أن جرّبت حظّها وهزمت في الميدان. فذاك المواطن الفرنسي القاطن المغرب لا يمكن أن يتصوّر أنّ الهزيمة النكراء التي مُنيت بها بلاده تظل بلا تأثير في نفوس المغاربة.

هذا الأمر واضح في أقوال وأفعال الجنرال نوجيس. لم تدخل فرنسا للمغرب إلّا بصفتها الدولة الجارة القوية القادرة وحدها على إقرار الأمن وبعده القيام بإصلاحات جوهرية.. الإصلاحات توقّفت بل نسيت، فلم تبق إلا القوة لتبرير الوجود الفرنسي. ثم ها تلك القوة نفسها تنهار وتحتاج لإعادة بنائها إلى استنفار المغاربة أنفسهم. كيف يمكن لأي إنسان أن يتصوّر ألّا يؤثّر الوضع الجديد في النفوس ولو بعد حين؟

حتى لو صحّ أنّ الأثر كان ضعيفاً لما صدّق ذلك أحد من الفرنسيين.

أمام هذا التغير في الأوضاع العامّة تصبح كلّ التساؤلات عن قوة الحركة الاستقلالية، عن مكوّناتها، عن مستوى قيادتها واستعداد أتباعها، ثانوية إن لم نقل تافهة. حتى المتطرّفون من المعمّرين، الذين كانوا يحلمون بعزل السلطان وتعويض المخزن التقليدي بإدارة فرنسية يشارك فيها بعض المتعاونين المغاربة، يعترفون ضمنياً أن عليهم أن يعيدوا غزو البلاد، كما لو كان كلّ ما فعلوا منذ خمس وثلاثين سنة بدون طائل.

لم يقل إذن الاستقلاليون وحدهم: الآن نبدأ من صفر. الاستقلال كان يعني في الحقيقة الاستئناف.

الحماية فاصلة أقامتها الحرب العالمية الأولى وألغتها الثانية.

99 - لكن هناك محاولة إريك لابون؟

- ينتمي إريك لابون إلى تلك الفئة القليلة المنحدرة من مدرسة سان سيمون، تؤمن بتقدّم العلم والتقنية وتروم توظيف مكاسبهما لخدمة المجتمع بدون أدنى اعتبار لمصلحة الأفراد.

سبق له أن اشتغل في إدارة المكتب الشريف للفوسفاط، المؤسّسة العمومية التي أنشأتها الحماية لكي تتجنّب مطالبة الأجانب، خاصّة الأمريكان، بالمشاركة في استغلال تلك الثروة الهائلة محتجّين بمبدأ المساواة بين جميع المستثمرين مهما كانت جنسيتهم.

جاء لابون والاستثمارات الفرنسية تتهاطل على المغرب هروباً من الضرائب المفرطة والقوانين المحبطة التي ميّزت سياسة حكومات باريس بعد الحرب. أصبح المغرب يعتبر «مقاولة ناجحة» بشهادة المنافسين الأنجلوساكسونيين. وبالطبع نتج عن هذا الازدهار الاقتصادي تعاظم نفوذ المستوطنين الجدد واستياء متزايد عند المغاربة المسلمين. نشأت طبقة عمّالية قوية منقسمة إلى أقلية تتمتّع بكلّ الحقوق المخوّلة للعمّال في فرنسا وإلى أغلبية محرومة من كلّ حقّ تشكّل تربة خصبة لانتشار الدعاية الشيوعية وكذلك الوطنية.

وصل لابون إلى الرباط وفي حقيبته خطّة تقنوقراطية ترمي بالأساس إلى طمس الجانب السياسي من المطالب المغربية والتركيز على ضرورة الإسراع بوتيرة النمو الاقتصادي الذي يؤدي تلقائياً إلى تحسين الوضع الاجتماعي. ظنّ أنه يستطيع بلباقته وحنكته وحُسن نيّته إقناع الجناح الليبرالي من الجالية الأوروبية والجناح التقدّمي من الحركة الوطنية بإبرام هدنة. كان في إبداء هذا الموقف اعتراف ضمني أن المغرب التقليدي الفولكلوري، المعروف وحده لدى الجمهور الفرنسي، قد اختفى وأن سياسة ليوطي لم تعد صالحة لمعالجة مشكلات الظرفية الجديدة.

لا شكّ أن الرجل كان صادقاً في نواياه، يريد النجاح لوطنه والخير والتقدّم للشعب المغربي بكل فئاته، إلّا أنه، مثل كلّ التقنوقراطيين، أهمل أكثر مما يجب العامل السياسي. المغرب الذي كان يمكن أن يتفهّم مسعاه، إن هو ولد وبدأ ينمو، لم يكن يملك بعد السيطرة على المجتمع، ولا حتى القدرة على أن يكون قاطرة تجرّ الجماهير الفقيرة الأمّية نحو سبل المستقبل. برنامج لابون كان يحتاج، لكي يُعطي أُكُله، إلى مهلة، إلى استقرار سياسي، في فرنسا ذاتها، وإلى منظّمة قوية داخل الوسط المغربي قادرة على فرض هدنة. لم بتحقّق أيٌّ من الشرطين.

فوق هذه الاعتبارات يبقى السؤال المطروح هو: هل وضع التناقضات السياسية بين قوسين لمدّة محدّدة كفيل بتذويبها أو تليينها في نهاية المطاف؟ حتى لو طبّق برنامج لابون

مدّة عشر سنوات هادئة ونجح، أما كان ذلك النجاح نفسه يزيد في الأخير من حدّة التناقضات وجعل كل فريق يتشبّث تشبّثاً أشدّ بالهدف الذي يتطلّع إليه: مغرب لا نفوذ للأجانب فيه من جهة، ومغرب لا سيطرة للمغاربة فيه من جهة ثانية؟ جانب الضعف في خطّة لابون هو أنها جاءت متأخّرة ومتقدّمة في نفس الوقت، بمعنى أنها تفترض وجود ما تتوخّى تأسيسه، التفاهم والتوافق بين الخصوم. ما يؤخذ عليها هو ما يؤخذ عادة على كلّ سياسة تسويفية تظنّ أن مرور الزمن يحلّ كل أنواع العُقد والأزمات.

جاءت الخطّة متأخّرة لأنها تجاهلت كلّياً المخزن، عكس ما فعله نوجيس. ظن لابون أن المخزن ظلّ كما عرفه قبل الحرب ولم يدرك أنّه استعاد قسطاً كبيراً من نفوذه على جميع المستويات بسبب دعاية الوطنيين، بسبب سلوك الجنرال نوجيس، وأخيراً بسبب آثار الحرب. وكانت نتيجة هذا الإهمال الصفعة التي تلقّاها أثناء رحلة السلطان محمّد بن يوسف إلى مدينة طنجة في 7 أبريل 1947.

كانت الرحلة مبرمجة منذ شهور، الهدف منها تأكيد السيادة المغربية على المدينة بعد أن احتلّها الإسبان، مراهنة منهم على انتصار الألمان، وطردهم منها بعد فوز الحلفاء. عادت إلى طنجة الإدارة الدولية في ظلّ تنامي الدور الأمريكي. فكان لا بدّ من إضفاء صبغة قانونية على الوضع الجديد/القديم باستقدام رمز السلطة الشرعية.

لكن وضع 1947 غير وضع 1924؛ بأية صفة يقدّم

السلطان نفسه؟ اختار محمّد بن يوسف أن يخاطب موقّعي اتّفاقية 1906 وهذا موقف سديد من وجهة القانون الدولي، لكن من وجهة نظر فرنسا عدم ذكر دورها في تطوّر الدولة المغربية يعني عملياً إلغاء عقد الحماية. كان إهمال ذكر فرنسا ردّاً على إهمال لابون للمخزن. تصرّف محمّد بن يوسف كملك لا كسلطان ووعد بتلك الإصلاحات التي فشلت فرنسا في إنجازها. ثم عبّر عن توجّه استراتيجي (الانتماء إلى المجموعة العربية) بدون أدنى إشارة إلى تشاور مع الدولة الوصية كما لو تحوّلت بغتة سلطة الحماية إلى قوة محتلّة.

خطاب طنجة إعلان أمام المنتظم الدولي على رفض مسبق لأي مقترح إصلاحي تتقدّم به فرنسا في المستقبل. لم يفهم أحد حينذاك كلّ هذه التداعيات، بل قد نشكّ هل كانت حاضرة في أذهان محرّري الخطاب، لكن يبدو الآن واضحاً أن ما أقدم عليه محمّد بن يوسف لم تستطع فرنسا أن تمحو أثره لا بالإقناع ولا بالانتقام.

100 - ختاماً ما هو العامل الأساس في تحقيق استقلال المغرب؟

- الجواب عندي هو: الاستمرارية التاريخية للدولة المغربية، ما أطلقت عليه تجاوزاً لفظ المخزن، وأعني بهذا اللفظ الهيئة لا مجموع الأفراد الذين يكوّنون تلك الهيئة. إذا لم

نأخذ جدّياً هذا العامل بالحسبان لا سبيل إلى فهم كيف تمّ استفلال المغرب في مدّة وجيزة مع قلّة عدد المقاومين، مع انقسام الحركة الوطنية، مع ضعف خبرة رؤسائها، إلخ .

الواقع هو أن استقلال المغرب معجزة إذ كان آخر دولة استُعمرت في المنطقة وأوّل دولة استقلّت، وهو ما لم يهضمه البعض.

نتجاهل عادة كلّ هذه المعطيات لأنّنا ننكبّ على المغرب وحده، فيبدو لنا تسلسل الأحداث طبيعياً وننسى أنّ الطبيعي بالنسبة للملاحظين الأجانب وللجالية الأوروبية الوافدة على المغرب هو العكس. كانوا يعتقدون أن المخزن شبح احتفظ به للتندر والمباهاة وأن المغاربة شتات لا جامع بينهم، لا يتفاهمون، لا يتواصلون، لا يتعاهدون، وأنهم في سبات دائم لا يقومون منه إلّا لإطلاق صرخات لا يفهم أحد مغزاها . لم يكن هذا رأي الأدباء والقصّاصين فحسب، بل كان خلاصة الدارسين وعقيدة المسؤولين. وظلّ هذا التصوّر مسيطراً على الأذهان إلى نهاية الحماية وربّما بعدها.

هذا العناد، هذا التمادي في الخطأ، لا يُفهم إذا لم نعترف أنّه ينشأ طبيعياً من الواقع المشاهد كلّما فصل هذا الأخير عن بعده التاريخي. أمّا إذا اعتبر هذا البعد عادت الأمور إلى نصابها وفهمت على وجه أصحّ. لا عجب أن معقد الخلاف بين الوطنيين وأنصار الحماية هو بالضبط حول تاريخ المغرب، وحول تاريخ المخزن بالذات.

تتّضح المسألة في الحين إذا نظرنا إلى أحوال بلدان أخرى بعيدة عن المغرب، الهند مثلاً، وقارنّا مسار الطونكان والكوشنشين، أو إذا قارنّا في القارة الأفريقية حال جزيرة مدغشقر وسائر المستعمرات الفرنسية، نرى على الفور آثار البعد التاريخي في هذه الحالة أو تلك.

بالنسبة للمغرب أقرّر، في نطاق ما أعلم، أنّ العوامل الجزئية، حرب الريف، السياسة البربرية، الأزمة الاقتصادية الكبرى، الحرب، التدخّل الأمريكي، إلخ، لم تكن لتؤثّر بنفس السرعة وبنفس القوة لو لم يكن هناك عامل أقدم وأرسخ هو استمرارية هيئة المخزن.

لذلك لا أرى وجهاً لبعض التساؤلات:

هل جاء الاستقلال سابقاً لأوانه؟

أما كان أفضل لو جاء بعد استعداد وتمهيد له بإجراء إصلاحات ثقافية، اجتماعية، اقتصادية، إلخ؟

بعبارة أوجز: أما كان أنفع للشعب المغربي أن يسبق استقلال فعلي الاستقلال المعلن الذي كان صورياً لا مضمون له؟

عندما نذكر الأزمة المغربية يجب أن نميّز بين أمرين. هناك أزمة، أو سلسلة أزمات، محدّدة الأسباب، وجدت كلّ مرّة حلاّ ملائماً لها ولو مؤقّتاً، لكن هناك أزمة مزمنة دامت نصف قرن من 1906 إلى 1956. ما اتّفق عليه في الجزيرة الخضراء هو في النهاية ما تمّ الاعتراف به أخيراً في أكس لي

بان. والفترة الفاصلة كانت محاولة التفاف على هذا الواقع بدون جدوى.

فترة الحماية مثلت تلك المحاولة لفرض واقع جديد يفرغ اتّفاقية 1906 من محتواها. إخفاق المحاولة يعني فقط العودة إلى نقطة البدء. لنفهم هذا الأمر ما علينا إلّا أن نضع صورة الوفد المغربي إلى مؤتمر الجزيرة الخضراء جنب صورة حكومة البكّاي الأولى.

ما يُفهم من عبارة إصلاحات تمهيدية تعدّ المغاربة للاستقلال لا يدخل البتّة في نطاق مفهوم الحماية، رغم وعود ليوطي ونوجيس ولابون. ما إن يبدأ الإصلاح والإعداد للاستقلال إلّا وتحتضر الحماية كما فهمها المستوطنون وقرّروا المحافظة عليها بكلّ الوسائل المشروعة وغير المشروعة.

الخيار كان بين حلّين فقط: إمّا سحق وإبادة كلّ ما كان سابقاً على الحماية وإبداله بكيان جديد تولّده الحماية وترعاه، وإما العودة إلى الأصل. وبما أن هذا الأصل لا نسمّيه دولة أو شعباً أو وطناً أو قومية، إذ كلّ واحد من هذه المفاهيم غامض قابل لتأويلات متباينة، بدا لي أنّ الأقرب إلى الواقع التاريخي أن نحافظ على لفظ مخزن بمعنى أوسع من المعتاد.

9

101 - هل حقّقت الوطنية المغربية أهدافها؟

- عندما كنّا طلبة كانت تتجاذبنا ثلاثة تيارات: التيار الأول كان يتساءل عن معنى الاستقلال ويجيب على الفور أن المعنى واضح. الاستقلال هو الانعتاق من التبعية والخروج من الحجر. ماذا يطلب المحجور عنه؟ يطلب أن يكون مطلق التصرّف بدون مراقبة من أي كان. الاستقلال هو إذن نهاية نظام الحماية وهذا الهدف تحقّق سنة 1956.

التيار الثاني كان يقول إن الجميع يتوق إلى الاستقلال، لكن ما مضمون هذا الاستقلال إذا لم تسبقه إصلاحات جوهرية تغيّر بالكامل النظم الاجتماعية. وإلّا عدنا إلى حالة الفوضى التي كنّا نعيش فيها قبل سنة 1912. لا بدّ إذاً من الدخول في مفاوضات مع أعضاء المخزن ومع رجال الحماية بهدف تطبيق الإصلاحات المدرجة في دفتر المطالب بعد مراجعتها وإغنائها. لا مفرّ من وضع برنامج إصلاحي محدّد يتوّج، بعد تطبيقه بنجاح، بالإعلان عن الاستقلال.

التيار الثالث كان يدّعي أن الاستقلال لا يعني شيئاً في عالم اليوم؛ كلمة جوفاء ترمي فقط إلى تقوية مصالح الطبقة المسيطرة المتضايقة من منافسة الأجانب والتي تودّ أن تستحوذ على كلّ خيرات البلاد. المعركة ليست إذاً بين المسلمين والأوروبيين، ولا بين المغاربة من جهة والمستوطنين من جهة، بقدر ما هي بين طبقة مالكة مستغِلّة وطبقة، وهي الأغلبية الساحقة، مستغَلّة مقهورة ومحرومة من مقوّمات الحياة. وهذه هي أيضاً حالة الدولة المستعمرة. الاستعمار يغني فئة ضئيلة ولا يفيد الأغلبية الكبرى من سكّان البلد المستعمر. الاستقلال الحقيقي، لا الصوري، يعني إذاً بالدرجة الأولى تحرير الفرد المغربي من القهر، من استبداد حكّام المخزن ومن الاستغلال الطبقي، أكان من طرف المغاربة أو الفرنسيين، ومعروف أن الأول أقسى وأفظع من الثاني. عندما تتحرّر الطبقة المستغَلّة، سيما الطبقة الشغّيلة الصناعية، في كلّ البلدان ويتحرّر الفرد وتقوم الديمقراطية الصحيحة أي الشعبية في جميع الأقطار، عندها يصبح استقلال كلّ جماعة قومية بتدبير شؤونها أمراً بديهياً سهل التطبيق، إذ يعني الاستقلال الذاتي لكلّ جماعة لها خصائص تاريخية من لغة وأدب وطقوس دينية، إلخ . .

بما أن لفظ استقلال لفظ مشترك يحمل معاني شتّى يمكن القول إن الحركة الوطنية المغربية حقّقت هدفها الأساس بفسخ عقد الحماية، وفي الوقت ذاته لم تحقّقه، بمجرد الإعلان عن

هذا الاستقلال، إذ الفرد المغربي لا يزال يعاني من آلام الفقر والجهل والمرض.

102 - ما الفرق بين الوطنية كحزب والوطنية كحركة إجتماعية؟

- تسير كلّ التحليلات السابقة في نفس الاتّجاه بما أن المجتمعات تختلف في تمثّلها لماضيها وفي تطلّعاتها للمستقبل، فإن وطنية كلّ مجتمع تختلف عن غيرها وبالتالي كلّ حزب وطني له خصائصه. الحزب تابع للحركة وهذه تابعة للمجتمع.

هذا ما عبّرتُ عنه بكيفية مبتسرة، صادمة للبعض، عندما قلت إن الحركة الوطنية، المتحكّمة في اختيارات الحزب وقيادته، مسيّرة لاواعية، وربّما رغماً عن ميولها الشخصية، من طرف الشبح المخزني، وأعني به الهيئة المجسّدة للمسيرة التاريخية الخاصّة للجماعات المختلفة التي سكنت المغرب تحت سلطة متمركزة في مراكش أو فاس. كلّ هذا النقاش الدائر اليوم عن ظروف ونتائج مفاوضات إكس لي بان، التي سبقت عودة السلطان محمّد بن يوسف، له دلالة واحدة وهي من خدم من؟ من استخدم من؟

الواقع الذي لا مفرّ منه هو أن الحروف كانت مرسومة

على اللوح مسبقاً، تنتظر فقط أن تلوّن لتبين. ومن دلائل التبيان ظهور صورة السلطان على وجه القمر. لم يكن في مقدور أحد أن يتجاوز ما رسم على اللوح والذي كان يقضي أن يكون الحزب في خدمة رمز الأمّة الذي أنقذ المجتمع من التفكّك والاندثار.

من يتعجّب من هذه الخلاصة ما عليه إلّا أن يذكر وضع الشيوعيين الفرنسيين إزاء دي غول أيام الاحتلال النازي، وموقف حزب العمّال في إنجلترا إزاء تشرشل أثناء الحرب، بل موقف التروتسكيين حيال ستالين. كان مرسوماً في لوح التاريخ أن يكون موريس طورز بجانب دي غول وآتلي نائباً لتشرشل لا العكس.

103 - هل المجتمع المغربي أكثر انسجاماً اليوم منه أيام الحماية؟

- كان المحتلّون الفرنسيون والإسبان، وحتى الزوّار الأجانب من جنسيات أوروبية، يرون المجتمع المغربي أكثر انقساماً، ونراه اليوم أكثر انسجاماً ممّا هو عليه الأمر في الحقيقة. الواقع هو أن سلوك الأجانب، بل مجرّد نظرتهم إلينا تزيدنا انسجاماً، وبالمقابل كانت السياسة الرسمية بعد الاستقلال، سيما التعليمية، تزيدنا تشتّتاً وانفصاماً. هذا أمر عادي متوقّع.

إلّا أن اللفظين انقسام وانسجام لا يؤدّيان نفس المعنى ولا يصوّران نفس الواقع في كلا الحالتين.

هل انقسام الحزب الوطني سنة1937 مثل الانشقاق داخل حزب الاستقلال سنة 1958؟

هل النزعة البربرية عند الفرنسيين وبعض أذنابهم أيام الحماية هي نفس النزعة عند أنصار الأمازيغية اليوم؟ ابن عبد الكريم والتهامي الكلاوي كلاهما كان ينتسب إلى العرب ضدّاً على الدعاية الفرنسية الرسمية، ودعاة الأمازيغية اليوم يدافعون عنها بأسلوب عربي بليغ. يقول علماء الاجتماع إن الانقسام على أسس طبقية يدلّ على انسجام، والافتراق حسب الانتماءات القبلية يدلّ على تمايز وتنابذ. الأول يؤدّي إلى تناوب النخب والثاني إلى التباعد والانشطار.

أظن، وهذا مجرّد ظنّ، أن حالنا اليوم أقرب إلى الأول منه إلى الثاني، دليل على تقدّم ثقافي ملحوظ لا إلى تراجع.

104 - هل من الضروري أن تتجسّد الوحدة الوطنية في فرد بعينه؟

- في مستوى معيّن من التطوّر السياسي، حيث يتعاضد التجانس والتمايز، بمعنى أن الغلو في التجانس يؤدّي إلى

النزوع إلى التمايز دون أن يصل إلى حدّ الافتراق، يتغيّر معنى التجسيد.

السلطة دائماً مجسّدة في حزب أو في فرد. لا يمكن الإجابة عن السؤال المطروح على وجه عام وقطعي، لا بدّ من تمحيص الظروف والأوضاع الخاصّة.

الحسن الأول جسّد السيادة المغربية وفرض على الدول الاعتراف بها. الأمر الذي قيّد عمل فرنسا وإسبانيا وغيرهما أثناء عهد الحماية.

الحسن الثاني جسّد السيادة المغربية بكيفية لم تُرضِ جزءاً كبيراً من النخبة المثقّفة.

محمّد الخامس ومحمّد السادس جسّدا السيادة المغربية بموافقة الأغلبية الكبرى من المغاربة، أمّيين ومثقفين.

هناك تطوّر ملحوظ في مغزى التجسيد وهو على نسبة تطوّر المجتمع.

المسألة تطرح اليوم في إطار جديد لأنّ مفهوم السيادة الوطنية ذاته موضوع نقاش.

105 - هل كان على الحركة الوطنية أن تنحلّ بمجرّد ما أعلن عن استقلال البلاد؟

- هذا ما حدث بالفعل.

وذلك بتبنّي برنامج إصلاحي عامّ جعل من الاستقلال

مفهوماً أجوف. كما لو قيل بغتة للناس هذا الاستقلال لا يتحقّق إلا بتحقيق أهدافه. كان هناك تعارض واضح بين هذا الكلام وما كان يروّج أيام الحماية.

ثمّ هذا البرنامج قدّم كبرنامج الأمة جمعاء، في حين أن شرائح كثيرة من المجتمع لا توافق عليه، دخلت إلى حلبة الصراع السياسي بمجرّد أن أعلن عن استقلال البلاد. أصبحت الحركة الوطنية عملياً حزباً ضمن أحزاب كثيرة، موجودة أو مبرمجة.

لم يكن من الضروري أن يقال على رؤوس الأشهاد: الآن نختفي كحركة وننبعث كحزب، رغم أن بعض الأتباع طالب فعلاً بذلك.

106 - ماذا تعني الوطنية في الوضع الجديد؟

- هذا السؤال هو الذي دعاني إلى دراسة أصول الوطنية المغربية بهدف استشراف مستقبلها. والنتيجة التي انتهيت إليها هي أنها كأدلوجة، كتعبير بالمفاهيم والألفاظ، لا تعدو أن تكون استحضاراً وتنميطاً لمسار تاريخي متميّز.

التاريخ الوطني هو ما يروى على مرّ العصور مبسّطاً منسّقاً مقوّماً ويرسخ في الوجدان، لا تاريخ الباحثين النقّاد. هو بالضبط ما سمّاه البعض الأسطورة الذهبية والذي عبّرتُ عنه أنا بلفظ مخزن.

وبما أن هناك وجهاً آخر للمخزن، الوجه الظاهر الواعي بذاته، فلا بدّ من أن يتصارع هذا مع الأول، المخزن الضمني المنحلّ في ذاته. بعبارة أخرى إن الوطنية الواعية بجذورها ومكوّناتها التاريخية التي يمتزج فيها المكشوف والمستور، الواقعي والوهمي، قد تكون أكثر مخزنية من المخزن القائم وتروم تصحيحه وتقويمه.

للوطنية دور في المستقبل كوصي على الماضي، متعهّد بتبليغه إلى طلائع الأمّة. تمثّلها بالضرورة أقلية تدّعي لنفسها في كل حال الجدارة والأهلية، لأنّ هذا كان طابعها قبل وبعد الحماية.

من هنا نزعتها إلى تقويم الحادث.

107 - أوَليست هذه علامة ضعف؟

- ضعفها هو ضعف النخبة الحاكمة وضعف المجتمع برمّته، بل ضعف التاريخ المعتمد لديها، إذ هو تاريخ مختزل يتغنّى بأمجاد الموحّدين والسعديين ويتجاهل عهد الوطّاسيين والفترة التي أدّت إلى الحماية الأجنبية.

الوطنية ضرورة لا يمكن بحال إهمالها أو تجاوزها، لكنّها بالتعريف متخلفة عن الواقع.

والأمر ليس خاصّاً بالوطنية المغربية، إذ أستطيع أن أسوق

أمثلة كثيرة في هذا الباب مأخوذة من حال فرنسا أو أمريكا. قد تتصف هناك بالمحافظة أو اليمينية، لكن المضمون واحد.

يلزم إذن التمييز بين هذه الوطنية بالمعنى التاريخي والاعتزاز بالهوية أو الغيرة على الأرض أو إكبار الثقافة أو التشبّث بلغة الأجداد. قد تكون هذه المفاهيم حاضرة ضمنياً في الوطنية لكن لا تكفي لتعريفها، لا تمثل عقدتها الجوهرية. فهي قابلة للانسلاخ عنها والظهور للوعي مستقلّة تماماً.

نسمع في كلّ بلد وفي كلّ مناسبة: كلّنا وطنيون، لكن «الوطني» لا يوافق على هذا التعميم، فيطالب بإعطاء الدليل أي الموافقة الفورية والصريحة على ما يدّعيه هو. الوطني بالمعنى المحدّد يحبّ بلده وشعبه ولغته وثقافته، لكن ما يميّزه هو التماهي التامّ والمتواصل مع تصوّر معيّن للماضي، لا يقبل طمسه أو مزجه بغيره أو تبخيسه، إذ يرى في ذلك عقوقاً، خيانة، كفراً، إلخ..

108 - هل النخبة المغربية الحالية أقلّ وطنية من التي سبقتها؟

- بالمعنى المقرّر أعلاه أستطيع أن أقول إن النخبة الحالية المسيّرة لدواليب الدولة أقلّ «وطنية».

لا أعني أقلّ غيرة على مصلحة الوطن أو أقلّ تعلّقاً برفاهية

الشعب، لكنّها إما جاهلة وإما رافضة للتصوّر الذي حدّدناه وإن أقسمت بالثلاثي الشهير المذكور في النشيد الوطني.

إن لم تتجاهله بالمرّة، فإنّها على أقلّ تقدير تحبّ أن تعيد النظر فيه، خاصّة وهي تشتغل يومياً بلغة وحسب معايير موروثة عن عهد الحماية. لو طرحت على أعضاء هذه النخبة الحاكمة الأسئلة التي أحاول الإجابة عنها الآن لعجزت عن فهم المقصود منها أو لاستخفّت بها.

لهذه النخبة تصوّر آخر، تعريف آخر للوطنية.

هذا تخمين وتخمين بريء.

109 - ما هو مستوى وعي الشباب المغربي اليوم؟

- عال من الوجهة التقنية، واطئ من الوجهة التاريخية والسياسية.

وقد تكون هذه سيمة كل النخب الحاكمة حالياً. الاجتماعيات طغت على التاريخ، في حين أنّ العلاقة معكوسة عند الوطني الصرف.

في هذه النقطة بالذات حقّق الحسن الثاني مبتغاه.

لو كان الشباب المغربي - هذا خيال عاطل - على هذا المستوى وبهذه الذهنية أيام إريك لابون لنجح مشروعه، ولنتج عنه مغرب مغاير للذي نعيش فيه اليوم، ولنشأت وطنية مغربية مخالفة للتي نحاول رصد مميزاتها.

110 - قيل إن المغرب يشكّل استثناءً في العالم الإسلامي، إذ وحده يستحقّ أن ينعت بأنّه دولة الوطنية. ما رأيك؟

- هذه مقولة فرنسية تنمّ عن أمنية لم تتحقّق في نهاية المطاف. تصحّ إذا اقتصرنا على المحيط القريب.

المغرب دولة وطنية في نظر الفرنسيين لأنّ القطر أمازيغي الهوية إسلامي في المظهر لا غير، عكس إذن ما كان يقوله الوطنيون الذين يشدّدون أيضاً على خصوصية المغرب ولكن بمعنى مختلف. أمّا خارج هذا المحيط الضيّق فإنّنا نجد أمثلة كثيرة شبيهة بحال المغرب، ذكرنا بعضها فيما سبق. ما يميّز المغرب أساساً هو صعوبة المواصلات مع الجار الشرقي وسهولتها مع الجنوب. هذا المعطى الجغرافي هو الذي عمل على عزلة المغرب وإبعاده عن الأيالة العثمانية. لولا الفترة السعدية، وما ورثت عنها الأسرة العلوية، لكان وضع المغرب مماثلاً لحال باقي شمال أفريقيا. لكن الفترة السعدية باختيارها مراكش عاصمة لها، باهتمامها بالعلاقات العمودية شمال-جنوب، على حساب العلاقات الأفقية غرب-شرق، هذا الأمر هو الذي أدّى إلى مغربة التاريخ السابق وجعله فترة تمهيدية، سيما تاريخ الموحّدين.

صحيح أنّ نفس الأمر حصل في تونس لكن مع تأخر ملحوظ وتحت السيادة العثمانية، فظلّت تونس متميّزة كإقليم تميّز مصر أو العراق.

يجب أن نلاحظ فوق هذا أن الموقف السعدي هو بالضبط موقف ملك قشتالة بالنظر إلى مجموع إسبانيا أو ملك باريس بالنسبة لباقي فرنسا، أي أنّ الدولة الوطنية بناء أو مكسب أكثر منها إرث، نتيجة مخطّط يقوم بتجسيده رجل أو رجال مروّجين حججاً أحياناً قوية وأحياناً واهية.

ارتكب المحلّلون الأجانب خطأً منطقياً، بسبب أطماعهم التوسّعية، سجّلوا المخطّط وأهملوا المخطِّط. قالوا إنّ المغرب يتميّز بسيمات دولة وطنية وفي نفس الوقت ادّعوا أنّ المخزن، وهو المخطِّط، شبح أو أسطورة أو خرافة. لم يرتكب الوطنيون هذا الخطأ وما كان لهم أن يرتكبوه، فانتصروا رغم عددهم القليل وحنكتهم المحدودة واستعدادهم الهزيل.

111 - هل يحافظ المغرب على ميزته هذه؟

- لو كنتُ شيخاً هرماً، حطّمَت الأعوام أحلامه وداست الأحداث مطامحه، لتجنّبتُ الجواب بِالقول على الفور: البقاء لله.

دستور المغرب المستقلّ منفتح على كلّ الاحتمالات، العربية، الأفريقية، الأوروبية، وكلّها تؤدّي إلى نوع من الاندماج والذوبان. الاحتمال يتحقّق أو لا، بل يتحقّق ثم يلغى.

المهمّ أمر آخر.

كل التحليلات السابقة تعتمد بعض الفرضيات، أهمها فعالية المخزن، حتى عندما أصبح شبحاً بدون أدنى سلطة فعلية يصادق آلياً على ما يقرره غيره.

المخزن هيئة ونظام، له عقلية وطريقة عمل ووسائل تنفيذ معيّنة، كل هذا معرّض اليوم إلى الازدراء أو الرفض الصريح، إما عن جهل وإما بعد درس وتمحيص.

الدولة المغربية العتيدة، إطار الوطنية المغربية وبالتالي أساس وعيها بخصوصيتها، تنقد اليوم من الداخل. النظريات المعادية لها، والتي كانت مرفوضة أيام الحماية بسبب أهدافها المكشوفة أو الخفية، تحظى اليوم بمصداقية لم يحلم بها أبداً مروّجوها الأوائل.

تأويل التاريخ الذي اعتمده الوطنيون يفنّد اليوم علناً، لا لدواعي علمية بل فقط للمعارضة والمخالفة، عملاً بمبدأ خالف تُعرَف.

قد يقال هذه وطنية ضد- وطنية كما قيل يوماً هذه ثورة داخل ثورة، أي وطنية الشعب ضد وطنية الحكّام، أو وطنية الأمّة ضد وطنية النخبة. بعبارة أخرى إننا نشاهد اليوم تحوّلاً يشبه ما حدث في ثلاثينيات القرن الماضي عندما خلفت وطنية الشبّان وطنية الأعيان، ممّا ينبئ أن الاندماج المرتقب في هيئات أوسع، أو استبدال لهجة بأخرى، أو تأويل تاريخي

بآخر، لن يمحي من العقول والنفوس ما أكسبه المخزن العتيد وأورثه للحركة التي جدّدت الوطن وحرّرته من تبعية الأجنبي.

ولربّما هذا هو المعنى العميق للعبارة التقليدية اللّه هو الباقي.

على مدى أقرب قد يحتفظ المغرب بوطنيته المتميّزة، الضيّقة الأفق في عين البعض، لسبب بسيط وهو معاكسة الجيران والإخوة له.

ستستمرّ الوطنية المغربية باستمرار الوضع الذي نشأت وترعرعت فيه.



عبد الله العروي

استبانة

من السهل الاستظهار بالبديهيات: الوطنية هي شعور وسلوك وتطلّع.

الشعور هو الاعتزاز بالذات وبالأجداد.

السلوك هو الإيثار والتضحية.

التطلّع هو طلب الحرية والتقدّم والرفاهية.

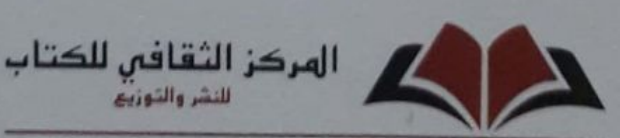
كل هذا صحيح لكن في فترات محدّدة ومن زوايا مختلفة، وربما متعارضة. ثمّ هذا التحليل يغفل ظاهرة مريبة.

كيف يمكن للوطنية، مهما يكن مضمونها، أن تكون بعد أن لم تكن؟

هذا معطى أوّلي، وإلاّ ما الداعي إلى توعية، تبشير، دعوى؟



Painting by Enache Radu Cristian / Designed by CMYK Studio





الدار البيضاء / بيروت

الدار البيضاء: 212522810406+ / بيروت: 9611747422+

markazkitab@gmail.com